
محمد الأخضر
عبد القادر السّائحي
بكر بن حمّاد
شاعر المغرب العربي
في القرن الثالث الهجري

بكر بن حمّاد



محمد الأخضر
عبد القادر السّائحي

بكر بن حمّاد

شاعر المغرب العربي
في القرن الثالث الهجري



صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع

بسم الله الرحمن الرحيم

«وشعره كثير تناقله الرواة شرقا وغربا ، ومنه قطع مبعثرة في بطون الكتب يحتاج في جمعها إلى عناية أدبية ، وغيرة قومية . وحسبنا أداء لحق هذا الشاعر المجيد ، والمحدث الثقة أن أفردناه بالكلام ونبهنا على فضله» .

الشيخ مبارك بن محمد الهلالي الميلي

الإهداء

- إلى البراعم التي أزهرت في عهد الاستقلال والحرية .
- إلى الأرواح التي آمنت بحرف الضاد في هذه البلاد .
- إلى الأجيال الصاعدة لتقول باعتزاز واعتداد : لقد قال الشاعر الجزائري الشاب بكر بن حماد منذ اثني عشر قرنا الشعر في بغداد ، وما أدراك ما بغداد أيام الرشيد ، والمأمون والمعتصم ،«فاسمقي يا نخلة الإبداع الأصيل» ، فإنّ ثورة نوفمبر المظفرة تمدك بالقوة ، وتفجر حولك الينابيع ، وتضمن لك المستقبل الزاهر المشرق .

محمد الأخضر عبد القادر السائحي



مقدمة

ان اختيار هذا الشاعر الرائد ضمن الموسوعة التاريخية للشباب يعود لعدة أسباب :

1 ـ أنه شاعر شاب فبكر بن حماد استطاع أن يقول الشعر العربي المتين الذي يقف في وجه فطاحل الشعر وأعلامه في القرن الثالث الهجري وهو لم يتجاوز العشرين سنة بعد .

2 ـ أنه الشاعر الذي توفرت له أسباب الحياة الرغدة في (بغداد) وفي (القيروان) وفي غيرهما من المدن العامرة وقتها ولكنه لم يتنكر إلى موطنه الأصلي فظل يحن إليه ويزوره إلى أن توسد ثراه في نهاية المطاف .

3 ـ أنه الشاهد على أول مساهمة للشعب الجزائري في الحضارة العربية الإسلامية ، فميلاده في مدينة (تيهرت) التي لم يمض على انشائها سوى نصف قرن ونبوغه المبكر إذ استطاع أن يلم بالمعارف المتوفرة وقتها في مدينته ويحمل عصا التسيار في اتجاه المدن المشرقية طلبا للمزيد من العلم والمعرفة وهو في سنته الثامنة عشر فقط دليل على أنه نابغة من نوابغ العصر من جهة . ودليل على أن ما توفر في تاهرت

عاصمة الرستميين من علم ومعرفة قد أسس على أساليب سليمة تؤهل المواطنين والمتساكنين للأخذ بأسباب الرقي والازدهار من جهة أخرى .

4 ـ أنه قبل ذلك كله برهان على رحابة صدر أسلافنا وفهمهم الصحيح للديمقراطية ، فلم يمنع منشؤه في تاهرت الأباضية أن يعيد النظر في مذهبه ويسلك مسلك أهل السنة .

* * *

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أن هذا الشاعر رغم الاهتمام الكبير به فإنه لم يزل لم ينل حقه الكامل من الدراسة والاهتمام ، فهناك كثير من الأسئلة مازالت قائمة حوله ، ولعل ذلك يرجع إلى نقطة هامة لازمت حياته وحياة كثيرين ممن سلكوا مسلكه تفطن لها الدكتور الصديق محمد الصالح الجابري في كتابه (النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس) إذ يقول :

«وبحكم هذه الوضعية فقد دأب الباحثون التونسيون على تغليب العناصر الجزائرية في انتماءات هؤلاء ، ولم يروا في إقامتهم أو إنتاجهم ما يبرر إقحامهم ضمن الدراسات والبحوث المتعلقة بالبيئة المحلية بينما لم يظفر هؤلاء أيضا باهتمام الباحثين الجزائريين اما لأنهم لم يطلعوا الاطلاع المناسب على ما تركوا من إنتاج علمي وسياسي وأدبي . وإما لأنهم لاحظوا ارتباط هذا الإنتاج بالبلد الذي عاشوا فيه وامتزجوا بأهله فاعتبروا فكرهم وتراثهم انعكاسا لأحداث ذلك البلـد»[1].

---

(1) كتاب النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس (1900 ـ 1962) لمحمد الصالح الجابري ص 8 مطبعة القلم تونس 1983 نشر مشترك بين د ، ع ، ك و ش ، و ، ن ، ت.

ان هذه الملاحظة تفسر لنا كثيرا من الإشارات فيما يأتي من هذا البحث ، وخاصة فقدان نصوص شعره ، إذ لا يتوفر الآن لدينا من شعره المنسوب له صراحة إلا نيفا ومائة بيت موزعة على عدد من القطع وقليل من القصائد وان تعددت أغراضه كالغزل والوصف والمدح والهجاء والرثاء والاعتذار والزهد والوعظ . وفعلا إنّ الدارس ليتعجب إذ يجد أن هذا الرجل قد اشتهر بالشاعر ، فكل متحدث عنه إلا وصفه بصفة الشاعر ، ثم لا يجد ديوانا لهذا الشاعر يضم أشعاره التي ملأت الدنيا ، أين هي «القصائد الطويلة الجيدة» ؟

* * *

لقد أهتم بهذا الشاعر الأستاذ محمد بن رمضان شاوش اهتماما كبيرا يستحق عليه كثيرا من التقدير والاحترام والشكر ، وفي معلوماتي ، أنه أول من خصص لأبي عبد الرحمن كتابا كاملا سنتعرض له في الفصل الخاص بمن ذكروا بكر بن حماد وكتبوا عنه من المعاصرين مثل الدكتور محمود علي مكي ، والأستاذ عادل نويهض والأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، والأستاذ محمد الطمار ، والشيخين مبارك الميلي ، وعبد الرحمن الجيلالي .

يقول محمد بن رمضان شاوش في كتابه (الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي) :

«ليس بالقسم الرابع من هذا الكتاب (كتاب شاوش) كل ما أنشده ابن حماد من الشعر وان كنا لم نقف له إلا على قطع قليلة مبعثرة بين صفحات الكتب ، وفي ثنايا المخطوطات وقد بذلنا جهدنا كي نجمع له ما استطعنا من مختلف المصادر التي أمكننا الحصول عليها

فما عثرنا بعد البحث الطويل المستمر إلا على نحو المائة وعشرة أبيات من شعره لا غير»[2].

ويقول الشيخ مبارك الميلي رحمه الله في كتابه تاريخ الجزائر في القديم والحديث :

«وذكر الحافظ التنسي كلمته في معارضة مدح عمران بن حطان لابن ملجم على فعلته وذكرها المسعودي أيضا في (مروج الذهب) ولكن لم ينسبها لأحد . ثم وقفت عليها منسوبة له (أي لبكربن حماد) في (طبقات الشافعية الكبرى)»[3].

فكم هم الذين أعجبوا بهذه القصيدة أو نقموا منها ولكنهم لم يدروا أنها لهذا الشاعر الذي نشأ بين أحضان المذهب الخارجي (الأباضية) في تاهرت ثم اقتنع بمذهب أهل السنة لست أدري هل في القيروان أم في بغداد أم في تاهرت نفسها ؟ بناء على انتسابه القبلي (زناتة) على رأي ابن خلدون ، ولم لا ؟ فلقد كانت تاهرت مثلا أعلى في التسامح بين المذاهب ؟ بل في جعلها تتعايش وتتجادل بالتي هي أحسن طيلة قرن ونصف .

لم تكن مدينة تاهرت أول مركز ثقافي للبذرة العربية الإسلامية . فقد سبقتها (طبنة) التي قال عنها البكري :

---

(2) كتاب الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي لمحمد بن رمضان شاوش ص 53 ـ المطبعة العلوية بمستغانم سنة 1385 هـ = 1966 ـ (الجزائر) .

(3) كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج 2 ص 70 لمبارك بن محمد الهلالي الميلي مطابع بدران وشركاه ـ بيروت 1963 نشر مكتبة النهضة الجزائرية .

«ليس من (القيروان) إلى (سجلماسة) مدينة أكبر منها»[4] فهي القاعدة الأولى في المرحلة الأولى أو ما عرف بعهد الولاة حيث كان الوالي ينزل مدينة القيروان مبعوثا من الخليفة ومنها يوجه العمال إلى الجهات فكل عامل يتجه إلى المدينة المعتبرة في منطقته وكانت (طبنة) قاعدة (الزاب) من التراب الجزائري .

كان المغرب والأندلس ولاية واحدة إلى أن دخل عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي الأندلس سنة (138) للهجرة واستولى عليها ، وجدد بها ملك بني أمية ، وأورثها عَقِبَهُ من بعده ، وكانت تلك الدولة غُرّة في جبين تاريخ العرب ، وفي سنة (140) تأسست سجلماسة ، وكانت بها دولة بني مدرار ، وفي سنة (144) تأسست تيهرت ، وكانت بها دولة الرستميين ، وفي سنة (172) دخل إدريس الأكبر المغرب الأقصى وأسس به دولة الأدارسة»[5] .

ان بكر بن حماد قد عاش في الفترة ما بين سنة 200 وسنة 296 للهجرة (815 ـ 908 م) قضَى من هذا العمر الطويل الذي يقارب القرن بالحساب القمري ، طفولته ويفاعه إلى الثامنة عشرة في مدينته الأولى تيهرت ، هذه المدينة التي لم تلبث أن أصبحت عاصمة علمية وتجارية كبيرة في القرنين الثاني والثالث للهجرة .

لا شك أن موقعها المتوسط في قلب المغرب العربي عامة والمغرب الأوسط خاصة (الجزائر) كان مما أعانها على أن تصبح من أهم العواصم التجارية والفكرية في الجناح الغربي للعالم الإسلامي وكل ذلك بفضل

---

(4) المصدر السابق أنظر ص 42 .

(5) نفس المصدر صفحة 43 .

حكامها من الأيمة الرستميين الذين كانوا يبسطون حمايتهم على سائر ألوان التفكير ، ومذاهبه .

كما أن الجغرافية الاجتماعية لدولة تاهرت تساعد على هذا التعايش بين مختلف المذاهب التي دانت بها القبائل والأعراش التي تحيط بتاهرت وتكون القوة الأساسية لهذه الدولة .

تحدث عبد الرحمٰن بن خلدون عن مواطن قبائل (لماية) و (لواتة) و(هوّارة) التي انتشرت فيها الأباضية والقبائل الأخرى التي تواجهها مثل (مطماطة) و(مكناسة) و (زناتة) فقال :

«لماية وهي بطن وقسم من ولد فاتن (إلى أن يصل إلى مادغيس الأبتر) فهي قبيلة بترية ، وللماية بطون كثيرة منها : مزيزة ، ومليزة ، وكانوا ظواعن بأفريقية والمغرب ، وكان جمهورهم بالمغرب الأوسط مستوطنين بسحومة مما يلي الصحراء وهو قبلة تاهرت وجنوبها ، وقد أخذوا برأي الأباضية ودانوا به وانتحلوه . وانتحله جيرانهم من مواطنهم تلك من لواتة وهوارة ، وكانوا بأرض (أسرسُو) قبلة منداس ، وزواغة الغرب منهم ، وكانت مطماطة ومكناسة وزناتة جميعا ناحية الجوف ، الشمال والشرق» .

ان هذا يوفر لتاهرت الحماية المادية ويعطيها الشعور بالقوة مما يغنيها عن البحث عن الحماية العسكرية ويدفعها لأن تكون مركزا غنيا بالإطارات والكفاءات العلمية والخبرات التجارية والاقتصادية لأنها تمثل العاصمة العالمية للمذهب الخارجي وعاصمة ثقافية متفتحة لجميع المذاهب .

ينبغي كذلك ألا يغفل دارس الأدب الجزائري في هذه الفترة عمّا تسرب من المذاهب إلى بلاد المغرب فرارا من عيون السلطة وبحثا

عن الاطمئنان وطلبا للعقول التي مازالت على الفطرة فيبثون وينشرون دعوتهم بكل صراحة وجرأة في الرأي .

كما ينبغي ألا ننسى الصعوبة الكبيرة التي يواجهها الباحث في هذه الفترة نتيجة المحاولات المتعددة للحكام العبيديين القضاء على أكثر الآثار الرستمية في المغرب الأوسط ومحو آثار الأغلبية من أفريقية ، لهذا فان العناية بآثار (صدراته) قرب مدينة (ورقلة) ودراسة سلوك وتقاليد وطريقة الحياة في وادي ميزاب يلقي كثيرا من الأضواء على العهد الرستمي .

«تاهرت بفتح التاء وسكون الراء أو تيهرت بكسر التاء مدينة قديمة كانت موجودة بالقرب من مدينة تيارت الحالية في الجهة الغربية وعلى بضعة أميال منها ، وهذه اللفظة أي تاهرت أو تيهرت بربرية ومعناها في اللغة العربية : اللبؤة ، سميت المدينة بهذا الاسم لأن المكان الذي أسست به كان به قبل تأسيسها عرين تلتجيء إليه لبؤة لأوضاع أشبالها» .

«وهذه المدينة ترتفع عن سطح البحر بنحو ألف ومائة متر وهي واقعة في سفح سلسلة جبال تلية قد يزيد ارتفاعها على ألف ومائتي متر في الناحية الجنوبية منها بحيث أن البرد في فصل الشتاء قارس جدا وسماؤها كثيرا ما تكون ملبدة بالغيوم وتنزل بها أمطار غزيرة وتتراكم الثلوج على بسائطها وأنجادها»[6] .

«تيهرت مدينتان كبيرتان ، إحداهما قديمة ، والأخرى محدثة ، والقديمة ذات سور ، وهي على جبل ليس بالعالي وفيها كثير من الناس ، وفيها جامع ، والمحدثة مدينة أيضا فيها جامع كتاهرت القديمة ،

---

(6) كتاب الدر الوقاد ... لمحمد رمضان شاوش ص 18 .

وإمام وخطيب والتجار والتجارة في المحدثة أكثر ولهم مياه كثيرة تدخل في أكثر دورهم وأشجار وبساتين كثيرة وحمامات وخانات وهي أحد معادن الدواب ، والماشية ، والغنم ، والبغال والبراذين الفارهة ، ويكثر عندهم العسل والسمن ، وضروب الغلات»[7] .

«أما تاهرت أو تيهرت ، التي ولد فيها بكر بن حماد ونشأ وتوفي فإنها تقع إلى جنوب غربي الجزائر ، وجنوب شرقي وهران ... وقع اختيار مؤسس الدولة الرستمية على مكان يبعد عن تاهرت القديمة غربا بنحو خمسة أميال ، فاختط فيه ما سمي بعد ذلك بتاهرت الجديدة ، واتسع عمران هذه المدينة بسرعة ، وقصدتها جموع الخوارج من سائر أنحاء الدولة الإسلامية ولا سيما من جنوب الجزيرة العربية والعراق ومصر ... وكانت التجارات في أيدي الفرس والمصريين بصفة خاصة ، أما الحركة العلمية فقد كانت في تاهرت على أشدها فقد كان أئمة الرستميين ـ رغم كونهم دانوا بمبادىء الخوارج الأباضية يبسطون حمايتهم على سائر ألوان التفكير ومذاهبه»[8] .

ان الفكرة الأساسية التي تدور عليها محاور هذا الكتاب هي دفع القارىء والشباب بصفة خاصة إلى التساؤل والبحث ، فالمهم ليس هو جمع المعلومات ، وإنما إعادة ترتيب هذه المعلومات ، وإننا سنقول الحقيقة بكل صدق وإخلاص ، فلا نحاول تلفيق إجابة لقضية لم نستطع أن نجمع حولها المادة الكافية لإعطاء نوع من الإجابة المقبولة منطقيا على الأقل .

---

(7) (المسالك والممالك) طبعة ليون 1872 .

(8) د . محمود علي مكي ـ مجلة العربي ص : 79 العدد 53 .

لهذا فان الكتاب سيتوزع إلى فصول حسب النصوص المتوفرة لدينا ، وهو أمر قد يؤدي في بعض الأحيان إلى نوع من التكرار والإعادة ، ونحن نقوم بهذا عن وعي وتعمد لأن هذا التكرار ينطلق من وجهة نظر جديدة ، وعلى الأخص إذا كان يؤدي إلى إضافة جديدة إلى الموضوع الأصلي وهو إلقاء ما يمكن من الأضواء على شعر بكر بن حماد وحياته ، فان بلغنا من ذلك المقصود فالحمد لله والشكر لجميع الأساتذة والمؤلفين الذين سبقوني إلى الاهتمام بهذا الشاعر العظيم ، وان خانني التوفيق فيكفيني أنني حاولت قدر الجهد أن أنفض الغبار وأزيح الستار ، ومهدت السبيل إلى غيري من شباب الثقافة والأدب لمواصلة الدرب والفوز بالنتائج والثمار التي نقدمها جميعا هدية متواضعة إلى ثورة نوفمبر 1954 في عيدها الثلاثين .

م ، لا ، ع ، ق / السائحي

الجزائر (حي بن عمر) 19 رمضان 1404 هـ = 19 جوان 1984 م

الفصـــل الأول

بكر بن حماد في نظر : المؤرخ الشيخ : مبارك بن محمد الهلالي الميلي

تعرض الشيخ مبارك الميلي إلى هذا الشاعر في فقرة خاصة به في الباب الذي تحدث فيه عن الدولة الرستمية (فقرة 118) فذكر كنيته واسمه وأباءه ولقبه ونشأته وسفره إلى المشرق العربي في حداثة سنّه ومشائخه في العلم والحديث ومن اجتمع بهم من الأدباء والشعراء ورجوعه إلى القيروان وأخذه عن الإمام سحنون ثم جلوسه لتدريس الحديث وتعرض اللصوص له في عودته إلى تيهرت حيث جرح هو وقتل ابنه عبد الرحمن .

ثم أشار إلى شهادة المراكشي التي نقلها عنه الباروني بأنه كان ثقة مأمونا حافظا للحديث وقدم بعد ذلك ما نقله المقري في (نفح الطيب) عن الحوار الذي دار بين بكر بن حماد وقاسم بن أصبغ القرطبي فقال :

«ان قاسم بن أصبغ القرطبي رحل إلى المشرق سنة 274 هـ ولقي بالقيروان بكر بن حماد الشاعر التاهرتي ،

وسمع منه حديث مِسدد ، ولما قرأ قاسم حديثا فيه مجتابي الثمار قال بكر النمار[1] ولم يسلم أحدهما للآخر ، فقال بكر لنذهب إلى ذلك يشير لشيخ بالمسجد ، فحكم الشيخ لقاسم ، فقال بكر ـ وأخذ بأنفه ـ رغم أنفي للحق»[2] .

ثم أشار إلى أن الباروني قال : ذكره يوسف بن ابراهيم الورجلاني في سلسلة حديث رواه بكتابه (الدليل والبرهان) فاستنتج من ذلك الشيخ الميلي أن الشاعر يتمتع بثقة اتفق عليها الجميع بحيث أنه يروي عنه الخوارج وغيرهم ، ثم وصفه بأنه «نابغة في الأدب واشتهر بالشاعر ، وله القصائد الطويلة الجيدة في الأغراض المختلفة ... مدح الملوك والأمراء بالمشرق والمغرب وعارض دعبل من متعصبة الشيعة وعمران بن حطان من الخوارج» .

ثم ذكر مصادر قصيدته المعارضة لقصيدة عمران ابن حطان وهي الحافظ التنسي في (نظم الدُّر والعقيان في ذكر شرف بني زيان) ، والمسعودي في (مروج الذهب) وعبد الوهاب السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) وذكر القصيدة ومطلعها :

---

(1) في هذه الطبعة ذكرت (للثمار) مرتين ص 70 من الجزء الثاني من كتاب (تاريخ الجزائر في القديم والحديث) مطابع بدران وشركاه بيروت 1963 .

(2) المصدر السابق .

(قل لابن ملجم ـ والأقدار غالبة ـ
هدمْتَ ـ وَيْلَكَ ـ للإسلام أركانا)

يضيف أن التنسي روى له في نفس الكتاب الأبيات الثلاثة التي مطلعها :

(تبارك من ساس الأمور بعلمه
وذل له أهل السماوات والأرض)

ويختم الشيخ مبارك حديثه عن الشاعر التاهرتي بالفقرة التي صدرنا بها هذا الكتاب لأننا نعتقد معه بأن هذا الشاعر يحتاج إلى عناية أدبية وغيرة وطنية وقومية حتى يُؤدَّى له حقه في مجالي الأدب والشعر ، والحديث والسنة .

كما ذكر في الفقرة (14) الخاصة بتيهرت قطعته في وصف برد هذه المدينة .

* * *

تتفق المصادر على كنيته فهو أبو عبد الرحمن وعلى اسمه فهو بكر وعلى والده فهو حماد ، ثم يظهر أول خلاف حول جده فالشيخ مبارك يذكر أنه سهل بن أبي اسماعيل الزناتي ، والأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في (ورقاته) يذكر (سهر) ويذكر الشيخ عبد الرحمن الجيلالي (صهر) بالصاد ، ويضيف (أو سهل) ، أما الأستاذ نويهض فيثبت سهل ثم يضيف بين قوسين (وقيل : صالح ، وقيل سِهْر ،

وقيل سمك) ، والأستاذ الطمار يوافق الشيخ مبارك حرفيا ، والدكتور محمود علي مكي يعتمد (سمك) ، وهو ما جاء في (معالم الإيمان) للدّباغ ، والأستاذ محمد بن رمضان شاوش يذكر سهل ويضيف (وقيل بن سهر) وينفرد مع الدكتور محمود بحذف (أبي) من الجد الثاني أبي اسماعيل ولعلهما اعتمدا كتاب (معالم الإيمان) فهو أيضا حذفها فعنده أنه : أبو عبد الرحمن بكر بن حمادبن سمك بن اسماعيل الزناتي التاهرتي .

لا نجد في ترجمة بكر بن حماد للشيخ مبارك سوى ثلاثة تواريخ هي (217 هـ) سنة ارتحاله إلى المشرق ، و (296 هـ) سنة وفاته عن ست وتسعين سنة ، و (274 هـ) سنة رحيل قاسم بن أصبغ القرطبي إلى المشرق والتقائه ببكر في القيروان .

كذلك نجد إشارة هامة وهي ارتحال بكر إلى المشرق في حداثة سنه ليسمع الحديث من أبي مسدد ، وعمرو بن مرزوق ، وبشر بن حجر ، سنعرف فيما بعد خاصة في الفصل الخاص بكتاب (الدر الوقاد) أين سمع وأين اجتمع بالأدباء أمثال أبي تمام وعلي بن الجهم وصريع الغواني ودعبل ، ثم يشير الشيخ إلى أنه عارض دعبل الخزاعي من متعصبة الشيعة وعمران بن حطان من الخوارج ، بالنسبة

لمعارضة ابن حطان يذكر القصيدة أما بالنسبة لمعارضة دعبل فيكتفي بذكر الخبر : وهي قضية تحتاج إلى نوع من التأمل والنظر ، وتثير عددا من الأسئلة :

يقول أبو علي الحسن بن رشيق في (باب في منافع الشعر ومضاره) من كتاب (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) :

«ودعبل بن علي الخزاعي ، كان هجاء للملوك جسورا على أمير المؤمنين متحاملا ، لا يبالي ما صنع حتى عرف بذلك وطار اسمه فيه فصنع على لسانه بكر بن حماد التاهرتي ، وقيل غيره ممن كان دعبل يؤذيه ويهاجيه :

«ملوك بني العباس في الكتب سبعة
ولم تأتنا عن ثامن لهم كتب
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة
كرام إذا عُدُّوا وثامنهم كلب»

وقال قوم : بل صنعها دعبل نفسه ، وكان المعتصم يعرف بالثامن وبالمثمن أيضا ، فبلغه ذلك فأمر بطلبه ، ففر منه إلى بلد بالسودان بناحية المغرب ـ وهي التي تعرف الآن بزويلة بني الخطاب فمات بها وهناك قبره ...»[3].

---

(3) العمدة لابن رشيق ج 1 ص 56 مطبعة حجازي ـ القاهرة 1353 هـ = 1934 .

هل يمكن فعلا للتاهرتي أن يفعل مثل هذا الصنيع ؟ هناك معطيات موضوعية لابد من النظر فيها أولا قبل الإجابة وهي :

ـ أن بكر بن حماد قد حرض المعتصم على دعبل في مقطوعته المشهورة :

«أيهجو أمير المؤمنين ورهطه
ويمشي على الأرض العريضة دعبل»

فكيف يعقل أن يكون محرضا من جهة وهاجيا من جهة أخرى ؟ ـ رواية كتاب الأغاني صريحة في نسبة القصيدة إلى دعبل[4] .

ـ وصل بكر بن حماد إلى بغداد سنة 217 أو 218 هـ وهو الأرجح وتوفي دعبل سنة 220 فهل تكفي هذه السنوات الثلاث لجعل بكر بن حماد ـ ونحن نسلم بأنه نابغة وعبقري ـ يخوض في مثل هذه المداخلات القاتلة ، أنه التزم جانب الخليفة العباسي صراحة ، وفي رأيي يعسر على شاعر مثل بكر تغيير موقعه بسهولة .

---

(4) أنظر كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني في المجلد 2 ص : 96 ـ 97 ـ 98 ـ 110 / تحقيق عبد الستار أحمد فراج بيروت 1960 .

ـ كل الذين ترجموا إلى بكر بن حماد أشاروا إلى أنه ثقة مأمون ورأينا كيف رضخ للحق في اختلافه مع القرطبي فهل يصح من رجل ينسب إلى حملة حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، مع وصفه بالثقة والأمانة أن يقول شعرا قاتلا مقذعا وينسبه لغيره على طريقة الدس والخديعة ؟

إنه أمر لا يستقيم في نظري ، كما قال تعالى في الآية 112 من سورة النساء .

(ومَنْ يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا) .

كانت ولادة أبي عبد الرحمن بكر بن حماد التاهرتي في عهد ازدهار الدولة الرستمية أيام الإمام الثالث أفلح بن عبد الوهاب هذا الإمام الذي استمر في الإمارة مدة نصف قرن (190 هـ 240 هـ) الأمر الذي جعله يتم أغلب المشروعات التي كانت حلما في ذهن جده عبد الرحمن ابن رستم مؤسس الدولة الرستمية ... ثم يجني الثمار من البذور التي غرسها والده عبد الوهاب ، في هذا العهد الزاهر نشأ الشاعر بكر ، ولهذا لا نستغرب من كونه قرر الرحيل إلى المشرق مبكرا ، ولا غرو كذلك من أن يلمع نجمه بسرعة بين أسماء الشعراء الكبار ويصبح ممن يحرز على جوائز الخلفاء في البلاط العباسي .

نعم إننا نسلم بنبوغه المبكر وبعبقريته التي فتحت له الطريق إلى مراكز العلم والأدب في القيروان والبصرة والكوفة ، وبغداد ولكن كيف وصل إلى بلاط الخليفة المعتصم ؟

موضوع يستحق البحث الجاد للعثور على النصوص التي مدح بها هذا الخليفة ، فهي المفتاح الحقيقي القادر على الإجابة وقبل ذلك فليس لدينا إلا أقوال تذكر أن بكر بن حماد مدح المعتصم فوصله بصلات جزيلة ، ولنأخذ من الشيخ مبارك الميلي المثل والقدوة ، فإنه لو لم يطالع (طبقات الشافعية الكبرى) لظلت قصيدة بكر في معارضة شاعر الخوارج عمران بن حطان مجهولة إلى الآن ، رغم أن نصها موجود في عدد من الكتب كمروج الذهب ، وهي أهم قصائد بكر حتى الآن من حيث طولها (16 بيتا) ومن حيث محتواها ، فهي الدليل القاطع على أن بكر بن حماد ينتمي إلى المذهب السني وليس إلى المذهب الأباضي .

وأخيرا ، ان حصيلة ما أورد الشيخ الميلي من أشعار بكر بن حماد هي قصيدة معارضته لعمران بن حطان (16 بيتا) ، وقطعة تفضيل الله لبعض الناس على البعض (3 أبيات) ، وقطعة وصف برد تاهرت (4 أبيات) ، فالمجموع (23 بيتا) .

الفصـــل الثـــاني

بكر بن حماد في نظر المؤرخ الأستاذ حسن حسني عبد الوهـاب

أفرد الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب بكر بن حماد بترجمة ضمن الفصل الثاني المخصص لتراجم علماء (بيت الحكمة) من كتابه «ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية» ويحدد هو بنفسه السبب الذي يخول للمترجم له مكانة بين علماء بيت الحكمة فيقول :

«رأينا من المناسب ونحن نؤرخ لبيت الحكمة أن نلم بتراجم المشاهير الذين قاموا بتدريس العلوم به ، أو الذين يتوقع أنهم كانوا يترددون عليه من العلماء والحكماء والأدباء ، وذلك بقدر ما تيسر لنا معرفة اتصالهم به وانتسابهم اليه»[1] .

ضمن عشرين ترجمة تضم الأمراء إبراهيم الثاني وعبد الله الثاني ، وزيادة الله الثالث تأتي ترجمة بكر بن حماد مع الأساتذة الأدباء الذين بثّوا بين طلابه (بيت الحكمة)

---

(1) (ورقات) ص 200 و 201 ، مطبعة ومكتبة المنار ، تونس 1965 .

فنون الترسل ورواية الدواوين المنقولة عن فحول الكتاب والشعراء المعاصرين بالمشرق» .

ولتعريفك ببيت الحكمة نقتطف لك هذه الأسطر :

«أشرنا في بحثنا الخاص عن معالم (رقّادة) إلى أن بيت الحكمة كان يحل مكانا بأحد القصرين إمّا «الصحن» أو (الفتح) وهما من محدثات الأمير إبراهيم الثاني ، ولم يتيسر لنا تعيين مقره بأدق من ذلك»[2] .

«وقد يكون من الصعب أيضا أن نجزم ما اشتملت عليه هذه الدار من نظم وأقسام ومحتويات ، والظن الغالب أنها كانت تشابه سَمِيّتها العباسية التي كانت وقتئذ في بغداد مع احترام النسبة بين الخلافة والإمارة» .

«وبالجملة فإن (بيت الحكمة) كان في آن واحد مجلسا للدراسة والمطالعة ، ومحلا لنسخ الكتب ومقابلتها على الأصول المعتمدة ، وكان مرخصا للنساخ أن يحلوا في أماكن معدة لهم سواء كانوا ينسخون لأنفسهم أو لغيرهم بالأجرة ، كما يسمح للمطالعين مراجعة المؤلفات النادرة في أوقات معينة ، وكذلك استعمال الآلات الفلكية التي لا توجد إلا هناك»[3] .

---

(2) نفس المصدر ، ص : 194 .

(3) نفس المصدر ، ص : 198 .

«ولا يفوتنا أن ننبه القارىء إلى أن هذه العلوم الوضعية الحديثة الظهور في العالم العربي كانت غير مرموقة بعين الرضا من الفقهاء والمحدثين عدى ما له اتصال مباشر بالموضوعات الشرعية كالحساب والهندسة ، فكان علماء السنة أصحاب المدرسة القيروانية ينظرون اليها بتأفف ، وشيء من الاشمئزاز ، ولذا لم نرها تدرس في مساجد القيروان ، وإنما استأثر (بيت الحكمة) في (رقادة) بالعناية بها وبدراستها ونشرها بين الراغبين فيها وهم كثيرون ، ومن هنا نشأ شيء من التنافر والتباعد بين مدينتي القيروان ورقــادة .

وفي يقيننا أن تلك هي العلة التي حملت الكثير من أصحاب الطبقات ومؤلفي التراجم من القيروانيين على اهمال أنباء «بيت الحكمة» والتعريف بمن كان يجلس به ويتردد عليه ، من نبغاء معاصريهم»[4].

ويترجم الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب لبكر بن حماد في صفحة ونصف من كتابه القيم ، وورقاته النضرة فيذكر أنه نشأ بمدينة تاهرت في المغرب الأوسط ، و «قدم في حداثة سنه إلى القيروان ودرس على علية محدثيهـا

---

(4) المصدر السابق ، ص : 195 ـ 196 .

وفقهائها ، ثم رحل في طلب العلم إلى المشرق فسمع من جلة علماء البصرة والكوفة وبغداد ، وأتقن علم الحديث وفنون الأدب» .

ثم يتعرض ـ نقلا عن ابن العذاري الناقل من أبي اسحاق الرقيق ـ إلى تحريض بكر بن حماد المعتصم على دعبل لسبب ما ومعاتبة أبي تمامٍ له عن ذلك بقوله : قتلته والله يا بكر» وشهادة الرقيق المثني عنها ابن عذاري وهي : «كان بكر عالما بالحديث وتمييز الرجال ، شاعرا مفلقا ، مدح الخليفة المعتصم فواصله بصلات جزيلة ...» .

يذكر بعد ذلك أنه عاد إلى «افريقية وأقام برقادة دهرا طويلا ، ومدح كلا من الأمراء إبراهيم الثاني ، وعبد الله وزيادة الله الأخير بقصائد ضربنا عن ذكرها»[5] ، وليتك أيها الأستاذ الجليل لم تضرب عن ذكرها لأنها هي الغربال الذي يؤكد لنا شاعرية التاهرتي ، خاصة وأنك لم تثبت له من النصوص الشعرية إلا الأبيات الخمسة المحرضة للمعتصم على دعبل وأبيات الغزل التي سيأتي ذكرها .

يشير بعد ذلك إلى العلاقة المتينة التي كانت له ببلاط الأغالبة في رقادة وخصوصا بالوزير الأديب عبد الله بن

(5) نفس المصدر ، ص : 256 .

الصائغ أحد وزراء زيادة الله الثالث لينتهي إلى التأكيد على اختلاف ابن حماد إلى بيت الحكمة بقوله :

«وليس من شك أنه كان يختلف إلى «بيت الحكمة» ويجالس أعيان مدرسيه ، وقد حمل عنه أبناء أفريقية رواية الحديث ، وكذا دواوين شعر المعاصرين الذين اجتمع بهم في رحلته إلى المشرق ، ولذلك كان يعد من كبار نقلة العلم والأدب إلى المغرب»[6] .

هل كان بكر بن حماد مقيما في رقادة ويذهب إلى القيروان من حين إلى حين ، أم أنه كان مقيما بالقيروان ويفد على البلاط في رقادة من حين إلى حين ؟ قضية تحتاج إلى بحث وتوضيح رغم التأكيد الذي صاغ به أستاذنا الجليل حسن حسني عبد الوهاب إقامته في رقادة واختلافه على بيت الحكمة ولم يذكر إقامته في القيروان إلا في بداية أمره عندما قدم من تاهرت طالبا للعلم ومتجها إلى المشرق ، أما بعد عودته فيقصر إقامته على رقادة ، وما أظن أن الأستاذ الجليل لم يطلع على خبر لقاء قاسم بن أصبغ القرطبي سنة 274 هـ كما قال المقري وهو ليس لقاء عابرا وإنما لقاء من يجلس للتدريس والعلم .

---

(6) نفس المصدر ، ص : 256 .

يختم الترجمة بقوله «ولما انصرمت الدولة الأغلبية فارق بكر بن حماد القيروان ورقادة وتوجه إلى مسقط رأسه تاهرت فاعترضه قطاع الطريق قبل وصوله وقتلوه ، آخر سنة 296 هـ وله من العمر ستة وتسعون عاما»[7] .

سنرى تفصيلا لهذه القضية في الفصل السابع لأن بكر بن حماد بالتأكيد كان قد زار ولو مرة تاهرت قبل سقوط دولة الأغالبة ، ثم إنّ خبر اعتراض اللصوص له كان سنة 295 هـ .

أما في فقرة المصادر فإنه ذكر (الحلة السيراء) لأبن الأبار ، وابن العذاري 1 = 151 ـ (وديوان الأدب التونسي) للمؤلف ص 33 .

* * *

أهم ما نستنتجه من ترجمة الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب لهذا الشاعر والمحدث يتمثل في :

ـ خط بياني لحياته ونشأته في تاهرت : طلبه العلم وهو شاب حدث في القيروان ثم مواصلة رحلة طلب العلم

(7) ورقات ، ص : 257 .

إلى البصرة والكوفة وبغداد بالمشرق ، وهناك أتقن علم الحديث ونبغ في الأدب والشعر ومدح الخليفة المعتصم واجتمع بأبي تمام وصريع الغواني ودعبل وعلي بن الجهم ، ثم عاد إلى افريقية ليقيم برقادة يمدح أمراءها ويختلط بحاشيتهم ويختلف إلى «بيت الحكمة» .

وبعد انهيار الدولة الأغلبية يتوجه إلى مسقط رأسه ليموت مقتولا قبل وصوله إلى تاهرت .

- أنه شاعر مفلق وأحد رواة دواوين فحول الشعر العربي في القرن الثالث الهجري ، كما حمل عنه أبناء المغرب الأدنى الحديث .

- التاريخ الوحيد المذكور هو سنة 296 سنة وفاته عن ستة وتسعين عاما .

- إنني أعتبر ذكر ترجمة بكر بن حماد ضمن تراجم علماء «بيت الحكمة» المغربي ولو لم يعمر هذا البيت إلا أربعين سنة هو شهادة من مؤرخ وعالم له قدره في عصرنا الحاضر جعلتني أواصل دربي في العناية بهذا الشاعر الذي أحببته ونشأت بيني وبينه ألفة منذ أول لقاء لي به على صفحات كتاب الشيخ عبد الرحمٰن الجيلالي منذ أكثر من ربع قرن .

ـ كما أنه ذكر الشاعر مرة أخرى في أخبار (حدائق رقادة) نقلا عن صاحب (الحلة السيراء) أبي إسحاق الرقيق وسنرى الخبر كاملا في الفصل الخامس .

الفصـــل الثالــث

بكر بن حماد في كتاب الشيخ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي

يذكر الشيخ عبد الرحمن الجيلالي بكر بن حماد في باب (مشاهير الجزائريين) إثر الكلام على الدولة الرستمية كما جرت عادته الحميدة في كتابه (تاريخ الجزائر العام) حيث يذكر واحدا وأكثر من المشاهير بعد كل فترة متماسكة من التاريخ فذكر مصينسا (ص 74) والقديس أوغسطين (ص 105) والملك بيداس (ص 129) والكاهنة (ص 173) وسمكو بن واسول وأبا الوليد مروان المسيلي (ص189) .

وهو عنده من «أشهر كبار علماء الجزائر وأدبائها في هذا العصر» في القرن الثالث الهجري إذ ولد ونشأ بتيهرت حوالي 200 هـ = 816 م ، فأخذ العلم والأدب على علماء بلده ثم ارتحل إلى القيروان فأخذ عن أمثال صاحب المدونة سحنون بن سعد ، ودخل بغداد سنة 217 هـ = 832 م ، فأخذ عن ابن مسدد وعمرو بن مرزوق وبشر بن حجر ، ولقي من الأدباء أمثال أبي تمام صاحب ديوان الحماسة ، ودعبل الخزاعي ، وعلي بن الهجم ومسلم بن الوليد (صريع

الغواني) وابن الأعرابي ، والرياشي وأبي حاتم السجستاني ، وغيرهم من فطاحل الأدب العربي وشيوخ المشرق وعلمائه ، وكانت له مع هؤلاء مساجلات ومطارحات أدبية شعرية ونثرية ، واتصل بخلفاء الدولة العباسية وبملوك بلده تيهرت ، وحصلت له جوائز وصلات من الملوك والأمراء»[1] .

يضيف الشيخ الجيلالي بعد ذكر شهادتي البكري وابن عذاري قوله :

«تصدر الشيخ بجامع القيروان لإملاء الأدب والعلم سنة 274 هـ = 887 فارتحل اليه الكثير من أهل الأندلس للأخذ عنه والتخرج على يده ، وكان منهم قاسم بن أصبغ البياني ، وكان مجلسه حافلا بطلبة العلم على اختلاف مذاهبهم ، ثم كانت عودته إلى بلده تيهرت سنة 295 هـ = 907 ، وكانت وفاته بقلعة ابن حمه شمال مدينة تيهرت ، وذلك في شوال سنة 296 هـ جوان 909 م أي في نفس السنة التي سقطت فيها الجزائر الرستمية بيد العبيديين» .

ثم يذكر نموذجا لشعره القطعة التي اعتذر بها للإمام الرستمي السادس أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان الذي

---

(1) كتاب (تاريخ الجزائر العام) للشيخ عبد الرحمن محمد الجيلالي ج 1 ، ص : 210 و 211 المطبعة العربية ، الجزائر 1373 هـ = 1954 .

تولى سنة 281 هـ = 894 م ونازعه عمه يعقوب بن أفلح سنة 282 هـ = 895 م الإمامة طبعا بعد انتصار أبي حاتم حيث ظل إماما إلى سنة 294 هـ = 906 م .

القطعة من ستة أبيات ذكر منها الخمسة الأولى ومطلعها :

«ومـؤنسـة لي بالعـراق تـركتهـــا
وغصـن شبـابي في الغصـون نضير»

ولست أدري لماذا حذف البيت السادس وهو أهمها في هذا المجال أو بيت القصيد كما يقال ؟ وهو :

«وأكـرم عفـو يؤثـر النـاس أمـره
إذا مـا عفـا الإنسـان وهـو قديـر»

كما أنني لست أدري لماذا قال الشيخ الجيلالي ، ومن شعره قوله لما عاد من العراق معتذرا للإمام أبي حاتم ؟

هل لأن مطلع القصيدة يشير إلى العراق ؟ أم أن الشيخ وجد معلومة تتحدث عن بقاء الشاعر في العراق ؟ طبعا لا توجد معلومة لأن ابن حماد قد عاد من العراق قبل التاريخ بسنوات والشيخ الجيلالي نفسه أشار قبل أسطر في الصفحة الأخرى أنه تصدر بجامع القيروان لإملاء الأدب والعلم سنة 274 هـ .

يبقى إذن أن «مؤنسة بالعراق» هو من باب تصريف الكلام ، لأنه من غير المعقول أن يكون الشاعر ترك أسرته في بغداد طيلة إقامته في المغرب العربي .

ويختم الشيخ عبد الرحمن الجيلالي ترجمة بكر بن حماد بصورة قريبة من خاتمة الشيخ مبارك الميلي رحمه الله .

«وله في جميع أغراض الشعر قصائد طويلة وقطع رائعة هي متفرقة في كتب الأدب والتاريخ»[2] .

هناك إضافات نجدها في ترجمة الشيخ عبد الرحمن الجيلالي لبكر بن حماد منها :

- ذكره للتاريخين الهجري والميلادي .

- ذكر ميلاده 200 هـ ودخوله بغداد سنة 217 هـ وتصدره للإملاء في جامع القيروان سنة 274 وسنة عودته إلى تيهرت سنة 295 هـ وسنة وفاته 296 هـ .

- أشار إلى ابن الأعرابي وإلى الرياشي والسجستاني وما أدراك ما هم .

- أثبت أنه كان على اتصال بملوك بلده مع الاتصال بخلفاء الدولة العباسية .

---

(2) المصدر السابق ، ص : 211 .

ـ أثبت له مجلس إملاء للأدب والعلم في جامع القيروان كما أثبت له الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب مجلس تدريس ورواية في (بيت الحكمة) برقادة .

ـ أن طلابه من مختلف المذاهب .

ـ لم يشر إلى منازعاته مع دعبل ولا إلى مدائحه إلى أمراء بني الأغلب .

ـ وقوله صاحب المدونة سحنون بن سعد : أظنه خطأ مطبعيا لأن صاحب المدونة هو عبد السلام الذي اشتهر بسحنون بن سعيد وليس بن سعد .

الفصـــل الـرابـــع

بكر بن حماد في معجم الأستاذ عادل نويهض : «أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى منتصف القـرن العشـريـن»

يترجم الأستاذ عادل نويهض للتاهرتي في (حرف الباء) فيثبت بدءًا تاريخ ميلاده ووفاته بالهجرة والميلاد ويختلف في تاريخ الوفاة مع الجيلالي في التاريخ الميلادي فيثبت 908 م حين يثبت الجيلالي 909 .

يصفه بأنه «من شعراء الطبقة الأولى في عصره ، عالم بالحديث ورجاله ، فقيه ولد بتيهرت ورحل إلى البصرة في العراق سنة 217 هـ وهو حدث السن فأخذ عن مسدد الأسدي البصري شيخ الأئمة المصنفين الأثبات وأول من صنف المسند بالبصرة وغيره ، والتقى بكبار الأدباء وفطاحل الشعراء كشاعر الهجاء دعبل الخزاعي واللغوي الراوية العباس بن الفرج الرياشي ، والشاعر الأديب علي بن الجهم ابن بدر ، وسهل بن محمد السجستاني أحد كبار العلماء باللغة والشعر ، وحبيب بن أوس الطائي أبو تمام الشاعر وأحد أمراء البيان ... وغيرهم . واتصل بكر بالخليفة

المعتصم بالله ومدحه ، ثم عاد إلى أفريقية قبل سنة 239 هـ فأخذ عن عون بن يوسف الخزاعي وسحنون بن سعيد بالقيروان ، وفي السنة 274 هـ تصدر لإملاء الأدب والعلم بجامعها الكبير فارتحل اليه الكثير من أهل أفريقية ، والأندلس للأخذ عنه وكان منهم محدث الأندلس في عصره قاسم بن أصبغ بن محمد البياني القرطبي المتوفى سنة 340 هـ .

«وفي السنة 295 هـ عاد إلى تاهرت فتوفي بعد سنة من عودته (296 هـ) في قلعة ابن حمة شمال تاهرت ...

«له ديوان شعر» كبير عثر عليه في بلاد فارس[1] .

نلتقط من هذه الترجمة بعض الإفادات الهامة التي اختصت بها منها :

ـ أن بكر بن حماد فقيه ، لقد كنا نعرف أنه شاعر مفلق ، ومحدث ثقة وعالم بالرجال ويضيف الأستاذ نويهض درايته بالفقه .

---

(1) «معجم أعلام الجزائر» لعادل نويهض بيروت 1971 منشورات المكتب التجاري ، ص : 54 .

ـ يؤكد أنه دخل بصرة العراق سنة 217 هـ ومعنى هذا أنه لم يتوقف بالقيروان في رحلته من تيهرت طالبا للعلم ، وإنما عاد إلى القيروان قبل سنة 239 هـ وهذا التحديد واضح السبب لأن بكر أخذ عن أبي محمد عون بن يوسف الخزاعي القيرواني المتوفى عام 239 هـ ، فلما كان الأستاذ عادل قد جعل بكر يتجه مباشرة من تاهرت إلى البصرة ، فإنه لابد أن يتيح له الفرصة لكي يأخذ عن هذا العالم كتب أبي وهب أحد تلامذة الإمام مالك ، وعن الإمام سحنون وهو قد توفي سنة 240 هـ = 854 م .

ـ يتفق مع الشيخ الجيلالي في أنه تصدر للإملاء في الجامع الكبير بالقيروان سنة 274 هـ .

ـ أهم إضافة ينفرد بها معجم أعلام الجزائر للأستاذ عادل نويهض هي أنه عثر على «ديوان شعر» كبير لبكر بن حماد في بلاد فارس ، ومع الأسف فإنه لم يعطنا تفصيلات أكثر ، من الذي عثر على هذا الديوان ؟ وفي أي مدينة ؟ وهل هو في حالة جيدة تسمح بالاستفادة منه وطبعه ونشره ، ومتى عثر عليه ؟

ـ ثم يضيف قائمة بالمصادر :

ـ «الأزهار الرياضية ج 2 ، ص : 70 ـ 75 .

ـ «البيان المغرب» ج 1 ، ص : 153 ـ 154 .
ـ «خزانة الأدب» ج 2 ، ص : 436 .
ـ «معالم الايمان» ج 2 ، ص : 192 .
ـ «معجم البلدان» ج 2 ، ص : 8 .
ـ «المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب» ، ص : 68 .
ـ «ترتيب المدارك» ج 1 ، ص : 473 ـ 490 ـ 590 ـ 627 .
ـ « = = » ج 2 ، ص : 93 ـ 334 ـ 447 .
ـ «تفسير القرطبي» ج 1 ، ص : 287[2] .

ـ لم يذكر له أي شعر لقد أثبت الشيخ مبارك الميلي قصيدته المعارضة للشاعر الخارجي عمران بن حطان (16 بيتا) والضادية في الزهد (3 أبيات) وقطعة وصف برد تاهرت (4 أبيات) وأثبت له الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب قطعته التحريضية ضد دعبل (5 أبيات) ، وأبيات الغزل الثلاثة . وذكر الشيخ الجيلالي مقطوعة الاعتذار لأبي حاتم (5 أبيات من 6) ، ولكن إفادة الأستاذ عادل نويهض بأنه عثر على ديوان بكر بن حماد في بلاد فارس تظل أهم

---

(2) المصدر السابق ص : 55 .

خبر تدور عليه الأحاديث مستقبلا إلى أن تتمكن الجزائر من الحصول على نسخة من هذا الديوان بواسطة المكتبة الوطنية أو بواسطة جامعة الجزائر ، أو بواسطة المؤسسة الوطنية للكتاب وهي أهم قناة في رأيي .

فهل يتحقق هذا الأمل قريبا إن شاء الله ؟

الفصل الخامس

بكر بن حماد عند الأستاذ محمد الطمار

اهتم الأستاذ محمد الطمار ببكر بن حماد اهتماما خاصا فقد ذكر له أكثر من نصف ما نعرف من شعره (65 بيتا) موزعة على تسع اهتمامات هي التشبيب ، ومعارضة عمران بن حطان في موضوع ابن ملجم ، وتحريض المعتصم على شاعر الشيعة دعبل والاعتذار إلى الإمام الرستمي أبي حاتم ، ووصف برد تيهرت وزهديته في تفضيل بعض الناس على البعض ورثاء ابنه عبد الرحمن ، وزهديته القافية الرائعة ، ومدحه للحسن بن أبي العيش .

ذكره في الفصل الثاني من كتابه (تاريخ الأدب الجزائري) قائلا :

هو «أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل بن أبي اسماعيل الزناتي» ولد «بتيهرت» حوالي سنة 200 هـ (816 م) ونشأ بها ، وانكب من صغره ، على الدرس فتعلم على مشاهير علماء بلده».

ثم تحدث عن رحلته إلى المشرق سنة 217 هـ (832 م) . ابتداء بالقيروان للأخذ عن علمائها أمثال «سحنون» وانتهاء ببغداد الزاخرة بالعلماء فأخذ عن أبي مسدد وابن مرزوق وابن حجر ولقي أدباء لهم ذكر وصيت منهم «أبو تمام ودعبل الخزاعي وعلي بن الجهم ومسلم بن الوليد صريع الغواني ، وابن الأعرابي والرياشي وأبي حاتم السجستاني فصاحبهم وكانت له معهم مساجلات أدبية أسفرت عن ثبوت قدمه في الأدب وفي صناعتي الشعر والنثر »[1] .

وأثبت بعد ذلك اتصاله بخلفاء الدولة العباسية «وقال فيهم الشعر الرائق فأصفوه ودهم وأغدقوا عليه إحسانهم كغيره من أدباء بلاطهم» .

وذكر أنه عاد إلى «مربع صباه فدخل في طريقه إلى «القيروان» سنة 274 هـ (887 م) فتصدر للاقراء هناك».

وأتاه الطلبة في القيروان من كل فج وصوب وترامى صيته في الآفاق وقصده الكثير من أهل الأندلس للأخذ عنه والتخرج على يده مثل قاسم بن أصبغ البياني ، وقربه

---

(1) «تاريخ الأدب الجزائري» لمحمد الطمار ، ص : 33 ـ ش ، و ، ن ، ت ، مركب الطباعة ـ رغاية ـ الجزائر 1981 .

بنو الأغلب ، فقال فيهم القصائد الرائعة ونال منهم الجوائز السنية ، ثم ينقل لنا الخبر الطريف الذي ذكره الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في الورقات (ج 1 ص 371) نقلا عن مؤرخ أفريقية الكبير أبو إسحاق الرقيق وهو :

« كان بكر بن حماد ، الشاعر الأديب ـ ينتجع إبراهيم بن الأغلب ، ويمدحه بغرار القصائد ، فغدا يوما إلى «رقادة» بمديح له وقصد الفتى «بَلاّغ» خادم الأمير فقال له الفتى : «الأمير عنا مشغول في هذا اليوم ، قال بكر : فألطفْ بي في ايصال رقعة اليه فقال إنه مصطبح في جنان قصره مع الجواري ، ولا يصل اليه أحد» ، فارتجل بكر مقطوعا كتبه في رقعة ، واحتال «بلاّغ» في ابلاغها مساعدة للشاعر ، وكان في الرقعة أبيات فيها :

خلقــن الغـواني للرجــال بليــــة
فهــن مــواليـنــا ونحــن عبيـدهــا
إذا مــا أردنـــا الــورد في غير حينــه
أتتنــا بــه في كــل حيــن خدودهــا

وكتب تحت الأبيات ؛

فــان تكــن الوســائـل أعــوزتــني
فـــان وســائـــلي ورد الخـــدود

وبلغت الرقعة الى الأمير ، فلما قرأها دفعها إلى الجواري فأنشدنها وأظهرن سرورا بها وشفعن اليه أن أخرج إلى «بكر بن حماد» بصرة محتومة فيها مائة دينار.

وقد علق الرقيق على هذا الخبر بقوله : وصل إلى بكر من الأمير إبراهيم مال عظيم على مدائحه»[2].

ثم يقول ان مكوثه لم يدم بتلك الربوع «بل آب إلى بلده تيهرت ، سنة 295 هـ (907 م) فأصبح بها حجة أدباء عصره فقال شعرا ساحرا في أمراء «بني رستم» فحظي عندهم ونال منهم الصلات الجزيلة.

توفي بكر بقلعة ابن حمه ، شمال مدينة تيهرت ، وذلك في شوال سنة 296هـ (تموز 909م) في نفس السنة التي قضى العبيديون على بني رستم».

ثم يستعرض شهادة البكري وابن عذارى ، وأنه سجل له شعر كثير في جميع الأغراض الشعرية ، وكان يعرف بالشاعر لكثرة قصائده وحسن شعره ، ومعارضته لدعبل ، ويثبت النونية التي عارض بها بكر قصيدة عمران بن حطان منكرا عليه مدح عبد الرحمن ابن ملجم قاتل الإمام علي كرم الله وجهه ، ومنها :

---

(2) المصدر السابق ، ص : 34.

«فـلا عـفـا الله عنـه مـا تحمّلـــه
ولا سقـى قـبـر «عمـران بن حِطّـانا»
ثم يثبت أبيات تحريض المعتصم على دعبل ومعاتبة أبي تمام له ، فأبيات الاعتذار لأبي حاتم ، ثم أبيات وصف برد تيهرت مغيرا في مطلعها :

«مـا أحسـن الـبرد وريـعـانــه
وأطـرف الشمـس بـتـاهـرت»

مع أنها تروى : «ما أخشن البرد وريعانه» .

ثم يذكر مقطوعته في تفضيل بعض الناس على البعض برواية التنسي التلمساني ، وقصيدته في رثاء ابنه الذي قتله اللصوص وقصيدته في الزهد التي مطلعها :

«لقد جمحت نفسي فصدَّت وأعرضت
وقـد مـرقـت نفـسي فطال مروقها»

وكلمتا جمعت بدل جمحت مثل أوعزتني بدل أعوزتني في كتاب الطمار خطأ مطبعي . أما ذكره شهر (تموز) في سنة الوفاة وهو يقابل جويلية ـ فلست أدري المصدر الذي اعتمده ، لأن الشيخ عبد الرحمن الجيلالي ذكر جوان ولم يذكر غيره في التاريخ الشمسي ، ثم يذكر قصيدته

القافية في الزهد وأنه زعيم هذه المدرسة في الأدب المغربي فيقـول :

«وكيف لا يبدع في هذا اللون من الشعر وهو يتزعم الحركة الزهدية في الأدب المغربي يومئذ كما كان يتزعمها «أبو العتاهية في المشرق»[3] .

إننا لا نستطيع أن نجزم بهذا الرأي قبل الاطلاع على ديوان بكر بن حماد لأن انتجاع بكر حدائق رقادة عند الأغالبة وارتجاله مثل الأبيات التي تقدمت في خبره مع «بلاغ» لا تسمح له بالزعامة على الأقل .

وآخر ما يثبت له من المقطوعات الشعرية قول بكر ابن حمـاد :

«سـائـل (زواغـة) عن طعان سيوفـه
ورمـاحـه في العـارض المتهلـل
وديـار (نفزة) كيـف داس حريمها
والخيـل تمـرغ في الوشيج الذبـل
غشى (مغيلـة) بالسيوف مـذلـة
وسقـى (جـراوة) مـن نقيع الحنظل»

ويختم ترجمة هذا العالم الأديب الشاعر قائلا :

«هذه نماذج من شعره الكثير الذي شرق وغرب وأغرم به أهل الأدب ، ولعمري أنه يحق له أن يقال عنه : شاعر المغرب العربي ، وأنه فريد عصره في ميدان القريض»[3]

* * *

من أهم النتائج التي نتوصل اليها من دراسة ترجمة بكر بن حماد في كتاب (تاريخ الأدب الجزائري) للأستاذ محمد الطمار ، أنه ذكر ما استطاع من النصوص الشعرية المتوفرة حاليا ، ولا غرابة في ذلك فالمؤلف نفسه يقول في تقديم كتابه مبررا أسلوبه هذا بالاحتياج إلى ذلك خدمة للأدب وافادة للمتعطشين إلى النصوص :

«ونسأل الأدباء الكرام الذين أخذنا من مؤلفاتهم الجليلة ما احتجنا اليه من القطع ألا يؤاخذونا عليها ، وما فعلنا هذا إلا خدمة للأدب العربي وإفادة لإخواننا المتعطشين اليــه»[4] .

كذلك إعطاء أحقية ، «شاعر المغرب العربي لبكر» ابن حماد في عصره إذ لم يزاحمه أحد في هذا المجال ولأننا

---

(3) المصدر السابق ، ص : 37 .

(4) المصدر السابق ، ص : 6 .

نجد له أثرا يمتد على كامل الرقعة العربية الإسلامية فقد ساهم في الحركة الأدبية في عاصمة الخلافة بغداد نفسها ، كما أسمع صوته في عواصم الإمارات المستقلة في المغرب العربي وقتها ، القيروان ، وتاهرت وعواصم إمارة الأدارسة .

– ومن القضايا التي نناقش فيها الأستاذ الطمار حكمه بأن بكر بن حماد لما عاد إلى مسقط رأسه سنة 295 هـ أصبح بها حجة أدباء عصره ، ونحن نعلم أن عودته هذه كانت آخر المطاف ، وأنه عاد ثخين الجراح ولم يعمر بعدها إلا فترة قليلة وان تصدره للإملاء في الجامع الكبير بالقيروان ، واختلافه على بيت الحكمة في رقادة ووقوفه في صف فطاحل الشعر ببغداد هي التي أعطته مكانته العلمية والأدبية ليصبح حجة ومرجعا ، خاصة وأن الاعتقاد بأنه كان يختلف من حين إلى حين إلى تاهرت قبل عودته الأخيرة وأصبح ثابتا بنص اعتذاره للإمام أبي حاتم عن مساهمته في العمل الذي أجبر عليه ضده سنة انتفاضة عمه يعقوب بن أفلح عام (282 هـ) .

أما قضية تزعم بكر بن حماد لمدرسة الزهد في المغرب العربي مثل أبي العتاهية في المشرق فسنتكلم عنها في الفصل الذي نستعرض فيه كتاب (الدر الوقاد) للأستاذ محمد ابن رمضان شاوش حتى لا نعيد فيها القول مرة أخرى .

ـ كما نرجو أن تتاح لنا فرصة الاطلاع على ديوان بكر بن حماد ، وبعد ذلك يمكن أن تقوم الدراسة الجادة التي تسمح لصاحبها أن يوافق الأستاذ الطمار في آخر حكم له وهو قوله عن بكر بن حماد «... وأنه فريد عصره في ميدان القريض» أما الآن فإننا نكتفي بأنه شاعر أثبت وجوده في ميدان الشعر إلى جانب كبار شعراء المشرق العربي وسجل اسمه في جميع مراكز الثقافة والأدب التي ظهرت في المغرب العربي .

الفصـــل الســـادس

بكر بن حماد في نظر الدكتور محمود علي مكي من خلال مقاله : (شاعر المغرب العربي التاهرتي في القرن الثالث الهجري)

العدد الثالث والخمسون من مجلة «العربي»

قدم الدكتور محمود علي مكي وكيل معهد الدراسات بمدريد في «مجلة العربي» مقالة هامة جدا عن «شاعر المغرب العربي في القرن الثالث الهجري» بكر بن حماد التاهرتي اعتبرها «صفحة مطوية من تاريخ الأدب الجزائري» كشف عنها الستار بمناسبة استقلال الجزائر وتحية إلى الشعب الجزائري ، ودعوة إلى مزيد من البحث والدراسة لماضي بلادنا التي حاول الاستعمار فصلها عن أصولها العربية الإسلامية .

وبما أن الجهد الذي تقوم به الآن الثورة الجزائرية والقيادة السياسية وجميع أجهزة الحزب والدولة تخليدا لثورة نوفمبر المظفرة في ذكراها الثلاثين يدخل في هذا الباب فإننا رأينا أن نقدم كلمة الدكتور في أول مقاله كاملة تقديرا لليد التي قدمها للجزائر في أول خطواتها على درب الحرية والاستقلال .

«للعالم العربي والإسلامي أن يهنيء الجزائر العربية ويهنيء نفسه باستقلال هذا الجزء الحبيب من أرض العروبة والإسلام بعد أن ظل نحو قرن وثلث قرن تحت نير الاستعمار ، وإننا إذ نوجهها تحية صادقة إلى شعب الجزائر الأبي لندعو الباحثين إلى مزيد من دراسة ماضي هذا القطر الشقيق الذي فصلته يد الاستعمار الآثمة عن أسرته العربية ، حتى استطاع مجاهدوه أن يعيدوا الحق إلى نصابه ، ويجددوا هذه الصلات التي ربطت دائما شرق العالم الإسلامي بغربه .

«وقد حاول الاستعمار طوال بقائه في أرض المغرب أن يفهم أهله أنهم جنس يختلف عن جنس العرب وأنه لا صلة لهم بالشرق العربي ولا ثقافته ولا لغته ، ولكن هذه المحاولات باءت ــ والحمد لله ــ بالفشل على الرغم من أن المستعمرين جندوا لها كل ما ملكوا من علم وقوة .

«ويطيب لنا بهذه المناسبة أن نعيد إلى الأذهان ذكرى أديب جزائري يتمثل في حياته وآثاره ما بلغه هذا القطر الشقيق من تمثيل للثقافة العربية وتمسك بها وحافظ عليها منذ أحد عشر قرنا»[1] .

---

(1) «ص : 78 من العدد 53 من مجلة العربي» .

يقسم الدكتور محمود علي مكي دراسته عن الأديب الجزائري إلى فقرات هي :

1 ـ بكر بن حماد أصله ونسبه .
2 ـ تاهرت ، قلب الجزائر العربية .
3 ـ بتاهرت اعتصم الأمير عبد القادر الجزائري .
4 ـ المغرب العربي في القرن الثالث الهجري .
5 ـ بكر بن حماد في العراق .
6 ـ بين بكر بن حماد ودعبل .
7 ـ ثقافة جامعة متنوعة .
8 ـ ... في القيروان .
9 ـ في المغرب الأقصى .
10 ـ ... في تاهرت .
11 ـ وفاته .
12 ـ رثاؤه لابنه .
13 ـ بكر بن حماد وعلم الحديث .

يتحدث عن أصله ونسبه فيثبت أن جده هو «سمك ابن اسماعيل الزناتي».

يثبت أنه ولد بتاهرت سنة 200 للهجرة ، وأننا لا نعرف شيئا عن أسرته ، غير أن نسبة بكر بن حماد إلى

قبيلة (زناتة) ثابتة ولهذا يتحول من الحديث عن الأسرة إلى القبيلة فيقول :

«ولو أن نسبته إلى زناتة تدل على أنه من هذه القبيلة البربرية العظيمة التي كان ينتمي اليها معظم سكان المغرب الأوسط (الجزائر) وقد كان لزناتة فضل عظيم في الجهاد في سبيل الإسلام خلال العصور الوسطى سواء في المغرب أو في الأندلس ، واشتهر منها كثير من الأبطال والفرسان ، ويكفي أن نشير إلى تردد صدى ذلك في الأساطير الشعبية المصرية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أصبحت كلمة «زناتي » تطلق في اللغة الإسبانية حتى اليوم على الفارس الشجاع البطل ...»[2] .

هذا ما يخصصه الدكتور محمود علي مكي إلى اسم وأصل ونسب بكر بن حماد ثم ينتقل إلى الحديث عن مدينة الشاعر فيقدم لنا موقعها بين عاصمة الجزائر وعاصمة الغرب الجزائري وهران واختيار عبد الرحمن بن رستم الخارجي لها مقرا لملكه سنة 144 هـ موضحا أن موقعها الوسط في المغرب الأوسط أعطاها بعدا هاما في الدور الذي لعبته تجاريا وثقافيا ، خاصة بعد أن «تقاطرت عليها

---

(2) المصدر السابق ، ص : 78 و 79 .

جموع المعتزلة أو الواصلية ـ نسبة إلى واصل بن عطاء ـ فكان لهم بها مجمع كبير يضم نحو ثلاثين ألفا ، هذا فضلا عن تمتع أهل السنة بحريتهم العقيدية فبنوا المساجد ، وتوسعوا في العمارة ، وعاشت مختلف هذه المذاهب والأفكار جنبا إلى جنب في حرية ووئام يحملان على الإعجاب والتقدير»[3] .

ثم يواصل الحديث عن المدينة مشيرا إلى أنها مازالت قائمة حتى الآن مع تحريف اسمها إلى «تيارت» فيقول بعد ذلك :

«ولعل من طريف الموافقات أن أطلال هذه المدينة الرستمية عاصمة أول دولة جزائرية ، كانت آخر قلعة قاومت العدوان الفرنسي المتوحش على الجزائر بعد غزو الفرنسيين لها سنة 1830 ، فقد اعتصم بها الأمير عبد القادر الجزائري ما بين 1835 و 1841 مقاوما المستعمرين في بسالة أصبحت مضرب الأمثال» .

ويختم هذه الفقرة بقوله :

---

(3) المصدر السابق ، ص : 79 و 80

«هذا ولا يخلو كتاب جغرافي تعرض لوصف تاهرت من تلك الأبيات التي صورها بها شاعرنا بكر بن حماد ، وفيها من لطف التعبير وجمال الصورة وابتكار التشبيه ما لا مزيد عليه» ويذكر الأبيات معلقا عليها : وكانت تاهرت معروفة بكثرة غيومها ورطوبتها وشدة بردها وتراكم جليدها» .

بعد هذا ينتقل الدكتور محمود علي مكي إلى الحديث عن أوضاع المغرب العربي في القرن الثالث الهجري ، قرن بكر بن حماد فيشير إلى توزعه بين عدة ممالك «في المغرب الأدنى (تونس) كانت تحكمه أسرة الأغالبة التي كانت تدين بالولاء للخلافة العباسية ويجاورهم في المغرب الأوسط الرستميون أصحاب تاهرت وكانوا يجمعون في مذهبهم بين الخارجية والاعتزال ، وأما المغرب الأقصى فقد كان تحت حكم الأدارسة العلويين (من نسل أدريس بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب) وكانت دولة سنية إلا أنها أقرب إلى التشيع» .

ثم يطرح قضية العلاقة بين هذه الإمارات فيما بينها وبينها وبين الفرع الجديد للأمويين في الأندلس هناك على الجانب الآخر للبحر الأبيض المتوسط فيشير إلى وديتها بين

أمراء تاهرت وأمراء الأندلس رغم اختلافهم المذهبي نظرا للمصالح السياسية الموحدة بدعوى أن الرستميين يخشون قوة جيرانهم في الشرق (الأغالبة) المحميين بالعباسيين :

«هذا يفسر لنا كيف ارتبطت تاهرت الرستمية بروابط الصداقة والتحالف مع الدولة الأموية الأندلسية رغم اختلافهما المذهبي فقد كان الرستميون يخشون قوة جيرانهم ، الأغالبة في المشرق ، والأدارسة في المغرب ، وقد ساعد ذلك على أن تقيم في تاهرت جالية أندلسية كبيرة ، بل أن هذه المدينة كانت ذات طابع أندلسي واضح أكثر المؤرخون والجغرافيون المسلمون من الإشارة اليه والتنويه بـه»[4].

أعتقد أن ارتباط تاهرت بالأندلس لا يرجع إلى هذا التخوف كما ذهب الدكتور محمود علي مكي ، وإنما لأسباب أخرى أهمها في نظري هي الحكم في تاهرت نفسها ، بما وفره من أمن وحرية في المذهب والفكر ، وما يسرته سياسته من مناصب عمل وموارد رزق ، وما حبت تاهرت الطبيعة ذاتها من خصب ومياه وتوسط بين الشرق والغرب والجنوب .

---

(4) المصدر السابق ، ص : 80 .

ثم يختم هذه الفقرة بخلاصة تباين المذاهب في المغرب العربي خلال قرن بكر بن حماد بأنه لم يكن سبب ضعف بل ساعد على التعمق في الثقافة العربية الإسلامية وعدَّد من مراكز التعريب ومنطلقات نشر الإسلام وعبارته بالضبط :

«على أن تباين المذاهب السياسية في المغرب لم يحل بين بلاده وبين تمثل الثقافة العربية الإسلامية إلى أقصى حد ممكن بل إنّ القيروان ، وتاهرت ، وفاسا ، وقرطبة ، لم تلبث جميعها أن أصبحت حلقات في سلسلة واحدة تربط بين الشرق والغرب ، ومراكز لتعريب هذه البلاد ولنشر الإسلام فيها على أوسع نطاق»[5] .

بعد أن تحدث عن أصل ونسب بكر بن حماد وعن مدينته وعن وضع المنطقة كلها خلال قرن يعود في الفقرة الخامسة من دراسته ليتابع رحلته العلمية منطلقا من أنها أبتدأت سنة 217 هـ مضيفا عنصرا جديدا وهو فرضية أنه قام بهذه الرحلة رفقة أحد أقاربه ، وأنا نفسي لا أستبعد هذه الفرضية ، ولكن هل هذا القريب من الشخصيات السياسية ؟ أو من الشخصيات الثقافية ؟ أو من أهل التجارة الذين يخالطون الثقافة ولا يبتعدون عن السياسة ؟

---

(5) المصدر السابق ، ص : 80 .

كما أنه يقدم عصرين آخرين هما حذف الإقامة بالقيروان في انتقاله من تاهرت إلى بغداد ويؤكد طول إقامته في بغداد لفترة لحقت بأواخر أيام المأمون ، وكامل خلافة المعتصم وأخذت من خلافة الواثق ، ما هي المصادر التي أمدته بذلك ؟ إنّه لم يشر اليها ولكنها فرضية مقبولة إذا لم تعارضها النصوص .

«ولا عجب فإن السنوات التي وافقت إقامة بكر بن حماد الطويلة في العراق كانت هي التي تولى الخلافة العباسية خلالها خلفاء لقيت الحضارة العربية على أيديهم أعظم نضوج وازدهار من أمثال المأمون والمعتصم والواثق .

«ولهذا لم يكن غريبا أن نرى هذا الفتى الجزائري وهو في غضاضة الصبا ، وقد بهرت عينيه أضواء بغداد والبصرة والكوفة فأقبل على مجالسها العلمية ينهل من كل مـورد .

«وهناك تفتحت مواهبه الشعرية ، فإذا بنا نراه يتردد على مجالس عباقرة شعراء هذا العصر من أمثال أبي تمام ، ودعبل بن علي الخزاعي وعلي بن الجهم»[6] .

هل وصل بكر بن حماد إلى بغداد ممتطيا فرس شعره أم أنه روّضه فيها ولم يمتطه إلا بين الرصافة والجسر؟ سؤال

جدير بالطرح ورغم أن الدكتور محمود علي مكي يلغيه بحكمه على أن مواهبه الشعرية تفتحت في العراق ولم تكن قبل ذلك سوى براعم مغلقة .

يواصل الدكتور حديثه بما ذكره مترجمو بكر بن حماد من أنه مدح الخليفة المعتصم فوصله هذا بصلات جزيلة ويقدر أن هذه المدائح كانت خلال العقد الثالث من حياته مبرهنا على عبقريته ونبوغه «إذ أن الأديب الذي كان يستطيع مزاحمة ذلك الجيل من شعراء الدولة العباسية لابد أن يكون قد بلغ حدا بعيدا من الإجادة ، على أن المراجع لم تحتفظ لنا ـ مع الأسف ـ بشيء من مدائحه للمعتصم»[6] .

وكل ما نعرفه من تراث بكر في علاقته بالبلاط العباسي هي قصة النزاع بينه وبين دعبل بن علي الخزاعي ، وننقل صياغتها كما وردت في بحث الدكتور محمود علي مكي لما فيها من افادات كثقة بكر في نفسه وهو يتعرض لشاعر مثل دعبل ، وفارق السن بين الشاعرين إذ يكبر دعبل بكرا بأكثر من نصف قرن ، وان نشأة بكر في النظام الخارجي

(6) المصدر السابق ، ص : 80 و 81 .

جعلته لا يرضى بهجاء الخليفة السني ، وان وساطة أبي تمام اعترافا منه بمكانة بكر :

«غير أننا نعرف قصة النزاع الذي نشبت بين بكر ودعبل بن علي الخزاعي ، ولا شك في أن بكر بن حماد كان كبير الثقة بنفسه حينما تعرض لهذا الشاعر الذي عرف بشدة عارضته وذرابة لسانه ، لا سيما إذا قدرنا أن دعبل كان يكبر شاعرنا التاهرتي بأكثر من خمسين سنة (765 ـ 861 م) .

ونحن نعرف أن دعبل كان من شعراء الشيعة المتعصبين وقد اشتهر بهجاء خلفاء بني العباس هجاء مقذعا شديدا انتهى به أخيرا إلى أن لقي مصرعه على أيديهم ، وكان من الطبيعي أن يصطدم بكر بن حماد بدعبل ، فشاعرنا المغربي كان سنيا متطرفا ، ولنذكر أن نشأته الأولى كانت في رحاب دولة تدين بمبادىء الخوارج ، وقد رأى بكر هجاء دعبل للخليفة المعتصم ثغرة ينفذ منها إلى التحريض عليه والايقاع به»[7] .

ويذكر الأبيات الثلاثة ثم يضيف الدكتور :

---

(7) نفس المصدر ، ص : 81 .

«ويتوسط أبو تمام في الأمر ، إذ يقدر مدى ما تهدف اليه هذه الأبيات فيقول لبكر بن حماد ، قتلته والله يا بكر! فيقول هذا وقد وقعت كلمات أبي تمام منه موقع الرضا والاعتراف بما له من مكانة :

وعـاتبـني فيـه «حبيـب» وقال لي
لسانـك محـذور وسمـك يقتـــل
وإني وإن صرّفـت في الشعـر منطـقي
لأنصـف فيمـا قلت فيـه وأعـــدل»[7]

ينتقل الدكتور بعد هذين البيتين إلى الفقرة السابعة من دراسته عن بكر بن حماد ، فيتحدث عن طموح آخر له ، ولا عجب في ذلك فعصره عصر الازدهار الثقافي والعطاء الحضاري للشعوب المسلمة داخل وعاء اللغة العربية الجسر الرابط بين جميع الأمم التي اعتنقت الإسلام واندمجت فيه قلبا وقالبا ، هذا الطموح هو الأخذ من كل ألوان العلوم ، فبكر «لم يكتف بأن أصبح شاعرا مرموقا مرهوب الجانب في بغداد عاصمة الدنيا في ذلك الوقت ، بل أقبل كذلك على مجالس أهل الحديث ، والفقه ، وحلقات علماء اللغة والأخبار والنحو ، وكان لهؤلاء جميعا في البصرة سوق رائجـة»[8] .

(8) المرجع نفسه ، ص : 81 .

طبعا ان هذا يجعلنا أمام افتراض لا يبعد عن سؤالنا السابق عن علاقة بكر بالشعر هل كانت له قبل بغداد محاولات شعرية ثم دعمها ونماها فيها ، أم أنه غامر صوب عبقر في بغداد . مهما يكن الأمر فإن فرضية الدكتور محمود بأن بكر بن حماد تمكن من الشعر أولا ثم اتجه نحو الاستزادة من العلوم الأخرى بعد ذلك فرضية صحيحة وسنجد لها الدليل في الفقرة الثالثة عشرة بدأ الحديث عن علاقته بعلم الحديث إذ كانت قصيدته قصيدة شاعر فعلا ، أما الذين حاولوا الرد عليه فلم يكتبوا سوى منظومات .

يذكر بعد ذلك شيوخه في الحديث وفي علوم اللغة والنحو والأخبار فيقول :

«أما من علماء الحديث فقد تتلمذ بكر على الحافظ أبي الحسن مُسدَّد بن مُسَرْهَد البصري (المتوفى سنة 228 هـ) وسمع منه مسنده في الحديث ، وإلى بكر ، يرجع الفضل في إذاعة هذا الكتاب بعد ذلك في مختلف أنحاء الشمال الأفريقي والأندلس» .

وأما في علوم اللغة والنحو والأخبار فقد تتلمذ على جلة أساتذتها في البصرة والكوفة نذكر منهم : محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي المتوفى سنة 231 هـ وكان

راوية لأشعار القبائل في الجاهلية والإسلام ، ضليعا في النحو على مذهب أهل الكوفة . وكذلك أبا حاتم سهل ابن محمد السجستاني المتوفى سنة 255 هـ ، والعباس ابن الفرج الرياشي المتوفي سنة 257 هـ ، وكان كلاهما من أشهر من اشتغلوا برواية الشعر والأخبار واللغات»[9] .

يتم الدكتور حديثه عن أساتذة ابن حماد ومشائخه فينتقل إلى القيروان مثيرا قضية جديدة هي عدم معرفتنا المدة التي قضاها بكر في المشرق بين العراق ومصر ، لم تذكر المصادر السابقة أن لابن حماد أثرا في مصر ، فهذا عنصر جديد ، ومجال جديد للبحث والتنقيب ، كما يثير قضية حرصه على الرجوع إلى وطنه فيقول :

«ولسنا نعلم كم قضى بكر بن حماد في بلاد المشرق بين العراق ومصر ، ولا متى عاد إلى بلاده على وجه التحديد ويبدو أنه كان حريصا على الرجوع إلى وطنه على الرغم مما كان يستطيع أن يبلغه من المنزلة في البصرة أو في بغداد أو الفسطاط ، وهكذا نراه مرة أخرى في المغرب مستقرا أول الأمر في القيروان عاصمة المغرب الأدنى (تونس) حيث واصل الدراسة على مشائخها ، وكانت القيروان قد أصبحت في ظل الأغالبة من أعظم المراكز الحضارية

في شمال أفريقيا ، وتلقى بكر العلم هناك على عبد السلام ابن سعيد المعروف بسحنون المتوفى سنة 240 هـ ، وعلى عون بن يوسف الخزاعي المتوفى سنة 239 هـ ، أخذ عنه كتب المحدث المصري عبد الله بن وهب»[9] .

ثم يذكر اتصاله بالأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد الذي حكم أفريقية بين سنتي 261 هـ (875 م) إلى 289 هـ (902 م) طبعا إنّ (190 هـ) الواردة في مقال الدكتور لا تستقيم ، ويسرد إثر ذلك حكاية بكر مع الحاجب «بلاغ» يوم كان الأمير مصطبحًا في الجنان مع جواريع ويعلق عليها الدكتور قائلا :

«يدلنا هذا الخبر على أن بكرا عرف كيف يستفيد من تجاربه الماضية في بلاط العباسيين ، إذ نراه يستخدم وسائل هؤلاء الشعراء المتظرفين الذين كانوا يخلبون ألباب الأمراء بما أوتوا من قوة العارضة ولطف النادرة ، حاصلين بذلك على ما يريدون»[9] .

يعرض علينا الدكتور محمود علي مكي في الفقرة التاسعة علاقة الشاعر بكر بن حماد بالأمير أحمد الأكبر ابن القاسم بن إدريس أمير البصرة (بصرة المغرب) وكورت ؛

(9) نفس المصدر السابق ؛ ص : 81 و 82 .

وهي علاقة جديدة أيضا لم تلق الاهتمام من قبل ، وهل كان بكر بن حماد ، يذهب شخصيا إلى البصرة أو كورت أم أن قصائده هي التي كانت تنوب عنه في مجلس هذا الأمير ؟ النص الشعري موجود ولكن النص التاريخي الذي يثبت اتجاه بكر بن حماد مُغرِّباً بعد تاهرت مازال في بطن المجهول الذي ينبغي البحث عنه وتحقيقه ، حسب رأي الدكتور محمود أن الشاعر انتقل فعلا إلى عاصمة الأدارسة .

«وكان أحمد بن القاسم هذا قد اشتهر بالعلم والرغبة في استجلاب كبار الشعراء إلى بلاطه ، فعمل على استقدام بكر إلى بلده ، وأوسع عليه في الرزق ، وتوجه بكر اليه بمدائحه ، فمن ذلك قوله فيه :

ان السماحة والمروءة والندى
جمعت لأحمد من بني القاسم»[10]

ثم يؤكد مرة أخرى أن بكر بن حماد ظل في كنف الأمير الإدريسي زمنا لا نعرف مداه قبل أن نراه في مسقط رأسه تاهرت على أول حكم الأمير الرستمي أبي حاتم يوسف بن محمد بن أفلح «الذي اضطلع بأمور المغرب الأوسط فيما بين سنتي 281 هـ و 294 هـ . وكانت الأمور قد اضطربت على الملك الرستمي ، ويبدو أن بكر بن

حماد اشترك في الثورة التي نشبت ضده ، ولكن المُلْكَ استتب له بعد ذلك فاعتذر اليه بكر بقصبدة يقول فيها :

ومـؤنسـة لي بالعـراق تـركتهـا
وغصـن شبـابي في الغصـون نضير[10]

ويذكر الأبيات الستة المعروفة إلى الآن من هذه القصيدة ان كانت قصيدة طويلة ولكننا لم نجد بقيتها حتى الآن .

ثم يشير الدكتور إلى أنّ بكر بن حماد يعود إلى القيروان ليتفرغ للتدريس إلى أن يحدث بينه وبين الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد ما يوجب خروجه ثانية من القيروان ، ولا يمكن أن يكون الخلاف بين الشاعر وبين إبراهيم لأنه قد توفي منذ سنة 289 هـ 902 م ؛ والأمير الأغلبي الذي كان في سدة الحكم سنة 295 هـ التي توجه فيها بكر نحو تاهرت هو الأمير زيادة الله الثالث ، وأنه كان مصاحبا لابنه عبد الرحمن في رحلته هذه وخرج عليه جماعة من قطاع الطرق فينتهبون متاعه ويقتلون ابنه ويصيبونه بجراحات «ولكنه يبرأ منها ويصل إلى تاهرت ويقيم بها حتى تدركه

(10) المصدر السابق ، ص : 82 و 83 .

المنية في سنة 296 هـ بعد أن عمَّر قريبا من مائة سنة ملأ فيها الشرق والمغرب بشعره وعلمه وأدبه ...»[11].

إنني لست مطمئنا لرواية أن قطاع الطرق واللصوص هم الذين قتلوا ابن بكر بن حماد وجرحوا الشاعر نفسه، لماذا لا تكون الحركة الشيعية التي ستظهر في السنة القادمة وتجتاح دول المغرب العربي الواحدة تلو الأخرى هي التي بدأت عملها البعيد المدى، خاصة ونحن نعلم أن للشيعة ثأرا عند بكر بن حماد في قضية تحريضه المعتصم على شاعرها دعبل ؟

إنه مجرد افتراض أطرحه، رغم تواتر الأخبار، ونحن نعلم أيضا أن العبيديين حاولوا بكل جهدهم تعفية آثار الدول التي سبقتهم ومحوها، وقد جاء في كتاب أستاذنا الجليل حسن حسني عبد الوهاب رحمه الله «ورقات» قوله : جاء في «رياض النفوس» ج 2 مخطوط ص 32، وكذا في غيره من كتب التاريخ والتراجم :

«وأمر عبيد الله (المهدي) أن تزال من الحصون والمساجد أسماء الذين بنوها وأمروا بها من السلاطين، وأن يكتب اسم المهدي ... بدلا منها».

---

(11) المصدر السابق، ص : 83.

ومنذ ألف سنة يصرخ الجاحظ بأعلى صوته قائلا : من شأن الملوك أن يطمسوا آثار من قبلهم ، والعمل على إماتة ذكر أعدائهم ، فقد هدموا لهذا السبب المدن والحصون ، وهكذا كان الحال أيام العجم وأيام الجاهلية ثم في الإسلام... فقد هدم بنو العباس ما بناه بنو أمية وبنو مروان من المدائن والمصانع بالشام» كتاب الحيوان للجاحظ : 1 ، 31 .

أفلا يمكن أن نفترض أن صياغة خبر محاولة قتل شاعر المغرب العربي هي من صنع دعاة العبيديين ؟

ويعطينا الدكتور محمود علي مكي جوابا شافيا لقضية التزام بكر بهذه الروح الزهدية إذ يقول في مدخل الفقرة الثانية عشر :

«وقد انصرف بكر بن حماد بآخرة من عمره عن عرض الدنيا واقتصر على النظم في الزهد والمواعظ وذكر الموت وكان وقع مصرع ابنه عبد الرحمٰن شديدا ، على نفسه ، فأكثر من رثائه بقصائد مؤثرة نذكر منها قوله :

بكيتُ على الأحبة إذ تولَّوْا
ولو أني هلكت بكوا عليا»

ثم يسرد القطعة بأبياتها السبعة لينتقل إلى قصيدة (قف بالقبور) معتبرا أن هذه القصيدة نتيجة وقوف الشاعر

على قبر ولده الصريع فيخاطب نفسه فيها متعظا معتبرا ثم يستنتج من شعر بكر في الرثاء قوله :

«وشعر بكر في رثاء ابنه وتفكره في أمر الدنيا وزوالها من أجمل ما احتفظ لنا به من إنتاجه الأدبي وأصدقه مع بساطة التعبير وجزالة الألفاظ والبعد عن التكلف».

نصل مع الدكتور محمود علي مكي إلى فقرة (بكر بن حماد وعلم الحديث) وهي الفقرة الأخيرة في هذه الدراسة القيمة ولعلها الأولى من نوعها ، إذ قل أن يهتم رجال الثقافة في المشرق العربي بالعبقريات التي تنبع في المغرب العربي ، فيشير إلى أن بكر بن حماد متعدد جوانب الثقافة ، فهو لغوي ومحدث وفقيه بالإضافة إلى صفته الأصلية وهي الشاعر ، وهذا التعدد يزيد من إعجاب الدكتور فيقول :

«والواقع أن هذا التعدّد مما يزيدنا إعجابا بهذا الأديب الجزائري العالم ، فقد اعتدنا على أن يكون شعر المحدثين والفقهاء ، ثقيلا جافا لا يفيض بهذه الحياة والحساسية اللتين تفيض بهما أبيات بكر»[12].

وقد بلغ تمكن بكر من الفنون المتعددة أنه عبر عن بعض آرائه في علم الحديث شعرا ، وهذا الشعر لا يمت

---

(12) مجلة (العربي) العدد 53 ، ص : 84 .

بصلة إلى «منظومات» المحدثين التي ليس لها منه إلا الوزن والقافيـة .

يقدم الدكتور برهانا على رأيه هذا مقطوعة بكر التي يصور فيها ضيقه بأولئك المتزيدين في الحديث مركزا هجومه على المحدث يحيى بن معين مطلعها :

لقـد حفـت الأقـلام بالخلق كلهم
فمنهـم شـقي خائـب وسعيـد
تـمـر الليـالي بالنفـوس سريعـة
ويبـدىء ربي خلقـه ويعيـد
أرى الخيـر في الدنيـا يقـلّ كثيره
وينقـص نقصـا ، والحديث يزيد
فلـو كـان خـيرا قل كالخير كلـه
وأحسـب أن الخيـر منـه بعيـد
«ولابـن مُعـين» في الرجـال مقالـةٌ
سيسـأل عنهـا والمليـك شهيـد
فـان يك حقـا قـولـه فهو غيبـة
وان يك زورا فالقصاص شديـد
وكـل شيـاطين العبـاد ضعيفـة
وشيطـان أصحـاب الحديث مريـد

«ولسنا ندري لماذا جعل بكر بن حماد ـ في نقده المتزيدين في الحديث النبوي الشريف ـ من يحيى بن معين هدفا لهجومه ، فقد كان يحيى هذا المتوفى سنة 233 هـ من أكثر نقاد الحديث تشدداً في روايته ، وغيرة على نفي الزائف الموضوع منه ، وقد كان بكر أجدر بأن يثني عليه من أجل ذلك ، ولهذا فقد كان هجومه على يحيى بن معين مما حمل كثيرا من علماء الحديث على الرد عليه معارضين قصيدته تلك ، ونذكر من بين هؤلاء الأندلسيين عبد السلام بن يزيد الاشبيلي ، وأحمد بن عصفور القرطي ، ومن أهل القيروان أبا علي بن ملوله ، ولكن قصائد هؤلاء جاءت من قبيل «شعر العلماء» جافة جافية» .

مما يلاحظ أن هذه القطعة ذكرها الأستاذ محمد بن رمضان شاوش في باب الزهد وأعطاها عنوانا «الخير في الدنيا قليل» واكتفى بالأبيات الأربعة الأولى متجاوزا عن اقحام ابن معين في الموضوع ، واعتقد أن ما اختاره الدكتور محمود علي مكي هو الأسلم لأنه يثبت موضوعا جديدا من الموضوعات التي طرقها الشاعر واهتم بها ، فهو لم يكن مجرد راو للحديث بل ، هو حسب شهادة ابن عذاري :

«كان عالما بالحديث وتمييز الرجال وشاعرا مفلقا» ولهذا فان ما رآه الدكتور في ابن معين من صفات تخوله الثناء

والمدح أرى أنها هي التي جعلت بكر يجعل منه «محل الشاهد» وصورة لما لا يحبه في بعض أصحاب الحديث وبعض رجالـه»[13] .

ثم يذكر الدكتور اشتغال بكر بن حماد بالتدريس في القيروان ويضيف إلى واقعة اختلافه مع العالم الأندلسي الكبير قاسم بن أصبغ البياني ، أن هذا العالم قد سبقت له دراسة الكتاب الذي وردت فيه مسألة الاختلاف من قبل في العراق ومصر ، وان تسليم بكر لتلميذه بعد تحكيم الشيخ «يدلنا على ما امتاز به بكر من التواضع والروح العلمية النزيهة» .

يختم الدكتور محمود علي مكي دراسته للشاعر بكلمة جديرة بالتسجيل والاهتمام ، ولهذا اثبتها بنصها الحرفي .

وبعد فما أجدرنا بأن نحيي ذكرى هذا الشاعر العالم وأمثاله ممن أنبتتهم أرض الجزائر العربية ، لقد ظل بكر ابن حماد نحو قرن كامل شاعر المغرب العربي كله بلا منازع بل ترددت أصداء صوته كذلك في بلاد العروبة الشقيقة بالمشرق . وحسب الجزائر فخرا في تاريخها العربي الطويل

---

(13) المصدر السابق ، ص : 85 .

أنه قد برز فيها خلال هذا العصر المبكر أمثال ذلك الأديب الذي نرى في حياته وإنتاجه ما يدل على الوحدة الثقافية والحضارية ين سائر بلاد العروبة» .

* * *

ان أهم النتائج التي نستخلصها من دراسة الدكتور محمود علي مكي هي :

ـ أنها دراسة اعتمدت المنهجية الحديثة في معالجة ترجمة هذا الأديب العالم ، ـ وهي ـ حسب معلوماتي ـ أول دراسة من هذا النوع خصصت لبكر بن حماد سواء في المغرب العربي أو في المشرق .

ـ لقد اشتملت على 44 بيتا من الشعر المعروف لبكر وهو ما يقارب نصف المعروف من شعره حتى الآن .

ـ أنها تفردت برؤية خاصة بحيث نفت أن يكون بكر قد درس في القيروان في مروره الأول إلى عاصمة الخلافة الإسلامية عاصمة العالم المتحضر وقتها ، بغداد ، وأنه اهتم بالشعر أولا حتى تمكن منه ثم التفت بعد ذلك لبقية الفنون التي جعلت منه صاحب ثقافة واسعة متعددة الجوانب ، كما رأت أنه أقام في ضيافة أمراء الدولة الإدريسية وأقام

في تاهرت ، وأقام في القيروان وبهذه الإقامات التي قال فيها الشعر وعلم وأملي استحق لقب «شاعر المغرب العربي في القرن الثالث الهجري بلا منازع» ، وأنّ «انتاجه يدل على الوحدة الثقافية والحضارية الكاملة بين سائر بلاد العروبة» .

ـ أن ارتحاله الأول إلى المشرق العربي كان صحبة أحد أقاربه .

ـ لست أدري لماذا أشار إلى تحريض المعتصم على دعبل ولم يشر إلى معارضته إلى شاعر الخوارج عمران ابن حطان ؟

ـ ومع أنه أورد خبر أبي اسحاق الرقيق في ورود حماد على إبراهيم بن أحمد في «رقادة» لم يشر إلى إقامة أو تدريس بكر في رقادة وبيت حكمتها .

ـ تميزت بتوضيح موقف بكر بن حماد من بعض رجال الحديث .

ـ أضفت على شخصية بكر بن حماد طابعها القومي وبعدها الوطني ، كما سجلت مساهمة المغرب العربي في بناء صرح الحضارة العربية الإسلامية من خلال إنتاج بكر بن حماد وأمثاله من العلماء والأدباء والنوابغ .

ـ ان كان هناك مأخذ ـ وهو متجاوز عنه في عمل لمجلّة ، حتى ولو كانت «العربي» ـ هو أنه حرمنا من ثبت للمصادر والمراجع التي اعتمدها في هذا العمل الهام ، وهو أهم بكثير وكثير عندما نضعه في إطاره التاريخي كتحية لاستقلال الشعب الجزائري فجزاه الله عنا وعن أبناء الجزائر كل خير وتقدير .

الفصل السابع

بكر بن حماد من خلال كتاب
(الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي)

للأستاذ / محمد بن رمضان شاوش

نقدم في هذا الفصل عملا عظيما جدا ، يعتبر أهم الأعمال التي اهتمت بالشاعر بكر بن حماد فلم يترك صاحبه جانبا من جوانبه إلا وحاول أن يلقي عليه ما في الاستطاعة من الضوء والتوضيح ، فقد قام بالمقدمات التمهيدية ، وجمع النصوص والمعلومات التوضيحية ، وأضاف إلى ذلك الشروح الضافية للمعاني الغامضة وللمفردات التي يُحتاج فيها إلى العودة للقاموس ، ولا غرابة في هذا فهو أستاذ مخلص لمهنته محب لعمله ، صادق في توجهه .

هذا العمل هو كتاب «الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ـ التاهرتي» ، للأستاذ محمد بن رمضان شاوش ، وقد ظهر بيننا سنة 1385هـ = 1966م مطبوعا بالمطبعة العلوية بمستغانم . فهو من بواكير الإنتاج الأدبي في الجزائر المستقلة .

يضم الكتاب 108 صفحة من الحجم المتوسط ويحتوي بعد الإهداء والمقدمة على خمسة أقسام هي :

القسم الأول وفيـه :

- حالة المغرب العربي أثناء القرن الثالث الهجري .
- خريطة المغرب العربي أثناء القرن الثالث الهجري .

القسم الثاني وفيـه :

- تأسيس تاهرت الرستمية .
- أحوال تاهرت : السياسية والاقتصادية والاجتماعية .
- حضارة تاهرت : الفنون ـ العلوم ـ الآداب .

القسم الثالث وفيـه :

- بكر بن حماد التاهرتي حياته :

أ ـ نسبه وولادته ونشأته .

ب ـ انتقاله إلى القيروان في طريقه إلى المشرق .

جـ ـ انتقاله إلى المشرق وإقامته ببغداد .

د ـ عودته إلى المغرب وإقامته بالقيروان .

هـ ـ عودته إلى تاهرت ووفاته بها .

آثـــــاره :

أ ـ مكانته العلمية ومذهبـه .

ب ـ مكانته الأدبية وشعره .

القسم الرابع وفيه :

- شعره ، وشرحه ، والتعليق عليه .

1 ـ باب الوصف .

2 ـ باب الهجاء .

3 ـ باب المدح .

4 ـ باب الزهد .

5 ـ باب الاعتذار .

6 ـ باب الرثاء .

القسم الخامس وفيه الفهارس :

1 ـ الأشخاص .

2 ـ القبائل .

3 ـ الأماكن .

4 ـ القوافي .

5 ـ المصادر .

6 ـ المراجع .

كما ترى أخي القارىء فان الأستاذ شاوش قد بذل جهدا يستحق عليه الشكر والتقدير والتكريم ، وستتأكد بنفسك ـ بعد العرض والمناقشة ـ من ذلك ، وان كنت آمل

أنك قد قرأت الكتاب من قبل ، وإني لا أزيد على دفعك للاستذكار أو لمد يدك لاستعادة هذا الصديق الذي التقيت به منذ سنوات ثم نسيته فهل تفعل ؟

حدَّد في المقدمة ما بذله من جهد بحثا وتنقيبا عن الكمية القليلة من شعر بكر بن حماد المتفرقة في كتب الأدب والتاريخ وما قام به من شرح وتعليق وفصول بيان حالة المغرب العربي وحالة بلده تاهرت أثناء قرن الشاعر من ناحية الحضارة والرقي الفكري والأدبي ، وقد حفزه لهذا العمل حافزان يذكرهما :

«أولهما ، القيام بالواجب المقدس الذي يفرضه علينا الدين واللغة والوطن .

وثانيهما : التلبية لرغبة عالمنا الجليل ومؤرخنا الشهير المرحوم الأستاذ الشيخ مبارك الهلالي الميلي القائل في شأن هذا الشاعر عندما تحدث عنه في كتابه تاريخ الجزائر : «وشعره كثير تناقله الرواة شرقا وغربا ومنه قطع مبعثرة في بطون الكتب يحتاج في جمعها إلى عناية أدبية وغيرة قومية»[1] [2] .

---

(1) «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» لمبارك الهلالي الميلي ج 2 ، ص : 71 مكتبة النهضة الجزائر 1967 .

(2) «الدر الوقاد» لمحمد بن رمضان شاوش ، ص : 6 المطبعة العلوية ، مستغانم 1385 هـ = 1966 .

أما في القسم الأول فيتحدث عما يسميه العرب «جزيرة المغرب» وما يسميه الجغرافيون المعاصرون «شمال أفريقية» وهو الشمال الغربي من القارة الأفريقية فيفسر سبب تسميتها بالجزيرة .

«لأن البحر الأبيض المتوسط يكتنفها من الناحيتين الشرقية والشمالية ، والمحيط الأطلسي أو بحر الظلمات من الناحية الغربية ، والصحراء الكبرى التي تفصل بينها وبين السودان (كان العرب يطلقون اسم السودان على جميع البلاد الواقعة جنوب الصحراء الكبرى) من الناحية الجنوبية»[3] .

يذكر ما تشمله كلمة المغرب الأدنى أو (أفريقية) وقد رأينا في الفصل الثاني أن الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب يكثر من استعمال (أفريقية) ثم ما تشمله كلمة المغرب الأوسط وهو معظم البلاد الجزائرية باستثناء أقليم الزاب الذي كانت قاعدته مدينة (طبنة) ويمتد غربا إلى مقاطعة (وجدة) حاليا ، ثم يذكر ما تعنيه تسمية المغرب الأقصى ويشمل الأرض الواقعة ما بين وادي ملوية شرقا والمحيط.

---

(3) المصدر السابق ، ص : 9 .

الأطلسي غربا والسوس الأقصى جنوبا ومن أشهر مدنه وقتئذ بعد فاس نكور «الحسيمة الآن» وسبتة وطنجة ووليلي وبصرة المغرب وسجلماسة .

بعد التحديد الجغرافي يعطي بسطة تاريخية تتمثل في أن هذه المنطقة كادت تكون ولاية واحدة قاعدتها مدينة القيروان طيلة العهد الأموي والفترة الأولى للخلافة العباسية ، ثم استبد إبراهيم بن الأغلب بالأمر وأنشأ إمارة الأغالبة في المغرب الأدنى تحت راية الخلافة العباسية ، كما نشأت إمارة الأدارسة في المغرب الأقصى ونتركه يتحدث عن المغرب الأوسط :

«أما المغرب الأوسط الذي يهمنا فإنه قد ألتجأ اليه عدة طوائف من الخوارج الذين كانوا عرضة للاضطهاد بالبلاد المشرقية ففروا بعقيدتهم إلى المغرب واستقروا بأوسطه وبجنوب أقصاه (يعني أقصى جنوبه) حيث لقيت دعايتهم النجاح والتوفيق في عدة نواح[4] وبالخصوص في تاهرت وما حولها حيث كونوا مملكة شاسعة الأطراف كانت تمتد من نواحي تلمسان غربا إلى نواحي الحضنة شرقا ، وكانت

(4) علاوة على مملكة بني رستم الأباضية التي كانت مستقرة بتاهرت والتي فرضت سلطانها على معظم البلاد فإنه قد تأسس بالمغرب الأوسط أربع إمارات خارجية أخرى . إمارة (بني يفرن) الصفرية بتلمسان على يد أبي قرة اليفرني .

تراقب شمالا موانيء وهران ومستغانم وتنس ، وأما جنوبا فإنها كانت تمتد إلى الصحراء الكبرى وتتصل في شرقها بجبل نفوسة من البلاد الطرابلسية . وكانت هذه المملكة ذات حضارة لامعة بحيث كانت تغبطها عليها جارتاها : القيروان ، وفاس المعاصرتان والمنافستان لها في آن واحد لا من حيث السياسة والإدارة فحسب بل من حيث الحضارة والعمران أيضـا»[5] .

*

* *

يتحدث في القسم الثاني عن تأسيس مدينة تاهرت الرستمية فيمهد لذلك بحديث عن الخطة المتبعة في تمصير الأمصار عند العرب كالكوفة والبصرة بالعراق ، وقنسرين بالشام ، والفسطاط بمصر ، والقيروان بافريقية ، ويتساءل بعد ذلك

- إمارة (بني دمر) الأباضية بتامغيلت بناحية (قصر البخاري) حاليا .
- إمارة (هـوارة) بالقلعة المنسوبة اليهم أي (قلعة هوارة) بناحية (غليزان) حاليـا .
- إمارة (بني مسرة) بمدينة أوزكي (سعيدة) حاليا . كما تأسست إمارة صغيرة بسجلماسة بجنوب المغرب الأقصى . هذه الإفادات من حاشية كتاب «الدر الوقاد» ص : 12 .

(5) المصدر السابق ، ص : 12 .

هل كان تأسيس مدينة تاهرت على هذا النظام ؟ ونظرا لاندثار المدينة فان الجواب ليس بالسهل ، ويتوقع أن هناك مخالفة في موقع المسجد الجامع فقط اعتمادا على ملاحظة المستشرق الفرنسي لوتورنو المستخرجة من مدن وادي ميزاب الأباضيــة :

«ان مدن وادي ميزاب الأباضية تخالف هذا النظام فان المسجد الجامع فيها بني في مكان بعيد عن الأسواق[6] . كما هو الشأن في مدينة غرداية التي مسجدها الجامع بأعلى المدينة وأسواقها بأسفلها وذلك لما يقتضيه المذهب الأباضي من انفراد المصلي وانعزاله وتخليه عن الشؤون الدنيوية وقت صلاتــه»[7] .

والملاحظة ليست صحيحة لأن بناء المسجد في قرى ميزاب بأعلى مكان هو لضرورة أمنية حيث كانت تستعمل الصومعة للمراقبة .

---

(6) أول ما يؤسس في المدينة العربية المسجد الجامع دار الإمارة بالقرب منه أحيانا ، ثم تقام الأسواق حولها ثم يبني الناس منازلهم ثم تحاط المجموعة بالأسواز والبروج والأبواب . أنظر : ص 17 من كتاب «الدر الوقاد» لمحمد بن رمضان شاوش .

(7) كتاب «المدن الإسلامية بأفريقية الشمالية» ، للوتورنو ـ الجزائر 1957 .

يفيض بعد ذلك في اسم تاهرت ، وأنها كانت موجودة قبل العهد الإسلامي بدليل الأحجار التي وجدت وعليها حروف لاتينية ، ثم عن موقعها وارتفاعها عن سطح البحر (1100 م) وشدة بردها وما رواه البكري عن التاهرتي الذي قال لشمس الحجاز المحرقة «أحرقي ما شئت فإنك والله بتاهرت لذليلة»[8] ورواية ابن عذاري جواب الظريف التاهرتي الذي سئل : كم الشتاء عندكم من شهر في السنة ؟ قال ثلاثة عشر شهرا»[9] وأنها فتحت على يد عقبة بن نافع الفهري عام 62 هـ (681 م) ، وبعد نزول القاضي عبد الرحمن بن رستم على (لماية) من بطون بني فاتن حسب الحلف الذي كان بينه وبينهم من قبل فاختار «لبناء مدينته أي تاهرت الجديدة أو السفلى مكانا يبعد عن تاهرت القديمة بخمسة أميال في الناحية الغربية أيضا ، وهذا المكان هو المعروف الآن بتاقدمت»[10] ثم يذكر ستة مزايا لهذا المكان كونه في قلب المغرب الأوسط وفي وسط سهل كبير وسهولة

---

(8) «المسالك والممالك» للبكري ، ص : 67 و«الدر الوقاد» ، ص : 19 .

(9) «البيان المغرب» لابن عذارى ج 1 ، ص : 280 و«الدر الوقاد» ، ص : 19 .

(10) «الدر الوقاد» لمحمد بن رمضان شاوش ، ص : 20 ، وفي الحاشية أن الأمير عبد القادر أنشأ بهذا المكان نفسه مدينة اتخذها مصنعا لأسلحته ومخبأ لذخائره فيما بين 1251 هـ ـ 1257 هـ (1835 ـ 1841 م) .

المواصلات ووجود الكلأ واستقرار عدة قبائل أباضية وكان ذلك بين سنتي 144 و 148 هـ (765 ـ 768 م) ومن المناخ الطبيعي تحدث عن المناخ السياسي وقد عمت خيراتها بسبب انتشار عدل الأئمّة الرستميين مقدما لنا شهادة ابن الصغير في كتاب «أخبار الأئمة الرستميين» :

«ثم شرعوا في العمارات والبناء ، وأحياء الموات ، وغرس البساتين واجراء الأنهار واتخاذ الرحى والمستغلات وغير ذلك . واتسعوا في البلاد ، وتفسحوا فيها ، وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقصى الأقطار فقلما ينزل واحد من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بيتا بين أظهرهم لما يراه من رخاء البلاد وحسن سيرة الإمام وعدله في رعيته ، وأمانه على نفسه وماله حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي ، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم ، وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين ، واستعملت السبل إلى السودان وغيرها من البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة . وصنوف الأمتعة والعمارة زائدة ، والناس والتجار من الأقطار قابلون»[1] .

---

(11) المصدر السابق ، ص : 23 .

يذكر ما قاله عنها أبو القاسم عبد الله بن خردابه في كتاب (المسالك والممالك) وأبو بكر أحمد المعروف بابن الفقيه الهمذاني في كتاب (البلدان) ثم يذكر أشهر أبوابها : باب الأندلس وباب الصبا ، وباب المطاحن ، وباب المنازل ، وان قصبتها المشرفة على السوق تدعى (المعصومة) وذكر التاريخي محمد بن يوسف الوراق من حماماتها اثني عشر حماما[12] وقد قورنت بدمشق من عواصم المشرق وبقرطبة من عواصم المغرب وعراق المغرب أو العراق الصغير.

ينتقل الأستاذ محمد بن رمضان شاوش إلى الحديث عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيبين أن نظرية الخوارج في الحكم تعتمد على الانتخاب والسيرة الصالحة ، فإذا حاد الإمام أو جار وظلم وجب عزله ولو بالقتال ، ولا وجود لنظام الوراثة عندهم غير أننا «نجد الإمامة في تاهرت انحصرت في أسرة معينة وهي أسرة بني رستم الفارسية الأصل الأباضية المذهب توارثها منهم ثمانية من الأئمة طيلة ما يقرب من قرن ونصف وهذا ما جعلها شبيهة بالنظام الملكي أكثر منها بالنظام الجمهوري»[13] .

---

(12) المصدر السابق ، انظر : ص : 25 .

(13) نفس المصدر ، ص : 27 ـ 28 .

هذا عن الحالة السياسية فإذا نظرنا إلى ما خصصه للناحية الاقتصادية وجدناه قد أعطاها حقها الكامل حتى صارت «تاهرت سوقا عظيما في تجارة الحبوب والأنعام والخيول والصوف والسمن وما إلى ذلك يقصدها التجار من كل أطراف البلاد للبيع والابتياع»[14].

أما عن الحالة الاجتماعية فيقول :

«كان المجتمع التاهرتي يتألف من أجناس مختلفة أشد الاختلاف ، ومن عناصر متباينة أشد التباين إذ كان يعيش فيها جنبا إلى جنب البربري والعربي والفارسي والسوداني والأباضي والسني والمعتزلي وكذا اليهودي والنصراني[15] وكل متحل بأخلاق مباينة لأخلاق الآخر ، ومتمسك بعادات وتقاليد مغايرة لعادات وتقاليد الآخر ، فمن أجل هذا كانت البيئة التاهرتية بيئة غريبة أشد الغرابة : تجد فيها الزاهدين المتقشفين المغالين في زهدهم وتقشفهم وتجد إلى جانبهم الأغنياء المثرين المنهمكين في ملذاتهم وشهواتهم المغالين فيها أحيانا إلى حد قد ينكره العقل والشرع ، ويمجه الذوق السليم»[16] .

(14) نفس المصدر ، ص : 31 .

(15) المصدر السابق في هامش ، ص : 32 نقرأ (كان للنصارى كنيسة بتاهرت يقيمون فيها شعائرهم الدينية بكل حرية) .

(16) نفس المصدر . ص : 32 ـ 33 .

ثم يوضح أن المصادر التي يمكن من خلالها القيام بدراسة وافية للجوانب الحضارية في تاهرت قد ضاعت ويرجح أنها ضاعت يوم أحرقت أسواق المدينة عام 305 هـ (917 م) فلم يصل الينا من الكتب في هذا الشأن إلا كتابان اثنان :

1 ـ «أخبار الأئمة الرستميين» لابن الصغير المالكي الذي ألفه عام 290 هـ (903 م) والذي اعتنى بنشره وترجمته إلى الفرنسية المستشرق موتيلنسكي (طبع الكتاب بباريس سنة 1907 م) .

2 ـ «سيرة الأئمة وأخبارهم» لأبي زكرياء يحيى ابن أبي بكر الورقلاني المتوفى عام 471 هـ (1078 م) الذي أعتنى بترجمته إلى الفرنسية المستشرق مسكري (طبعت هذه الترجمة سنة 1878 م بباريس والجزائر) .

وهذا الكتاب الأخير ـ علاوة على أن مؤلفه متأخر عن العهد الرستمي بما يربو عن قرن ونصف فانه مما يؤسف له أن المستشرق المذكور اكتفى بنشر الترجمة ولم ينشر النص العربي الذي تكون به الدراسة أتم وأوضح»[17] .

---

(17) نفس المصدر ، ص : 34 .

ويحيلنا في مجال الفنون على «سدراتة» ملجأ الأباضيين الأول بعد سقوط تاهرت خاصة على مقال المكتشفة الفرنسية التي قامت بالحفريات سنة 1371 هـ (1951 م) الأنسة (مرقريت فن برشيم) المنشور في مجلة «هنا الجزائر» عدد 18 صفر ، 1373 هـ (نوفمبر 1953 م) بنصه الفرنسي والنص المعرب بقلم سليمان عناني[18] .

وعن جانب العلوم فان حالها ليس كحال الفن المعماري إذ أن المعلومات المتوفرة تؤكد أن الأئمة أنفسهم كانوا ممن يساهم في الدروس العامة وأن مجالس تاهرت قد سمع بها القاصي والداني سواء في مجال العلوم الدينية والعلوم العقلية كالرياضيات وخاصة الفلك والتنجيم «فان شغف التاهرتيين بها كان عظيما جدا بحيث لم تكن بتاهرت جارية لا تعرف علامات بروج الأفلاك»[19] .

ولا غرابة في ذلك لأن مبدأ التسامح قد طبّق بصورة تجاوزت كل حدود التصور «وكانت تُعقد حلقات عديدة بمساجدها يجتمع فيها الطلبة للمباحثة والمناظرة والمناقشة بكيفية تثير الإعجاب»[19] .

---

(18) انظر : صفحتي 35 و 36 من كتاب «الدر الوقاد» لمحمد بن رمضان شاوش .

(19) أنظر : ص : 36 من المصدر السابق .

وفي مجال الأدب يذكر الأستاذ محمد بن رمضان شاوش مجموعة من الأدباء منهم :

- أبو سهل الفارسي حفيد الإمام أفلح .
- أحمد بن فتح المعروف بابن الخرّاز التاهرتي قاضي تاهرت وشاعرها .
- ابن الصغير المالكي مؤرخ الدولة الرستمية .
- أبو عبيدة الأعرج أستاذ ابن الصغير .
- أبو الفضل أحمد بن القاسم بن عبد الرحمن التاهرتي المعروف بالبزّاز .
- ابن الهرمة الأديب الفكاهي المضروب به المثل في إجادة النقد وحذق الشعر .
- سعيد بن واشكل التيهرتي من قضاة تاهرت وشعرائها
- الإمام أفلح بن عبد الوهاب .
- أبو بكر بن أفلح الذي جره ولعه بالأدب إلى إهمال شؤون الإمامة .

ويختم القائمة بقوله :

«ويكفينا دليلا على رقي الأدب وازدهاره في ذلك العصر نبوغ شاعر كأبي عبد الرحمن بكر بن حماد الزناتي التاهرتي المترجم له فيما يلي»[20] .

---

(20) المصدر السابق ، ص : 38 و 39 .

كما يفيدنا الأستاذ شاوش أن الجزائر قد عرفت في تاريخها المجيد ثلاثة من الشعراء يحمل كل واحد منهم اسم حماد :

1 ـ مترجمنا .

2 ـ محمد بن حماد الصنهاجي القلعي المتوفى عام 628 هـ (1231 م) وهو من سلالة بني حماد أمراء القلعة وبجاية .

3 ـ ابن حماد التلمساني[21] .

*

* *

ندخل إلى القسم الثالث من كتاب الأستاذ محمد ابن رمضان شاوش (الدر الوقاد) الذي خصصه لحياة بكر ابن حماد وآثاره فيتحدث عن اسمه وعن مولده بمدينة تاهرت سنة 200 هـ (816 م) وأنه «تلقى دروسه الأولى على مشاهير علمائها وجلة فقهائها ، وكبار محدثيها»[22]

---

(21) تقتصر المعلومات المتوفرة عنه على ما ذكره يحيى بن خلدون في كتابه «بغية الرواد» أنظر : ص : 43 من كتاب (الدر الوقاد) لمحمد شاوش ـ المطبعة العلوية بمستغانم 1385 هـ = 1966 م .

(22) المصدر السابق ، ص : 43 .

ولست أدري من أين له هذا ما دمنا لا نعلم شيئا عن أسرته ، ولا نستطيع أن نضع حمادا والده في فئة الزهاد المتقشفين أو فئة الأثرياء المترفين ، وإني شخصيا أميل إلى الثاني .

مرت سنواته الأولى واستعد للرحيل نحو المشرق العربي سنة 217 هـ (832 م) فيتوقف بالقيروان ليقرأ بها الحديث والفقه وبقية العلوم المعروفة وقتئذ على أكبر علمائها وبالخصوص على الشيخ عون بن يوسف الخزاعي (المتوفى عام 239 هـ (854 م) والإمام سحنون بن سعيد التنوخي المتوفى عام 240هـ (854م)[23] .

يقدم شهادة كتاب «رياض النفوس» للمالكي :
قال بكر بن حماد : لما فرغت من قراءة كتبي كلها على عون ـ وهي كتب ابن وهب[24] ـ قلت له «يا أبا محمد

---

(23) نفس المصدر ، ص : 44 و 45 .

(24) مما امتاز به عمل الأستاذ محمد بن رمضان شاوش هو تعاليقه المفيدة ، خاصة التي يقدم فيها خلاصة لترجمة الإمام او الأديب المتحدث عنه فنجد في التعليق رقم 3 ، ص : 44 ترجمة هذا العالم : هو أبومحمد عبد الله بن وهب القرشي من فقهاء المالكية وكبار محدثيهم ولد بالقاهرة عام 197 هـ (813 م) وتلقى دروسه بمكة والمدينة على الإمام مالك مدة عشرين سنة ومن اشهر تآليفه «الموطأ الكبير» و «الموطأ الصغير» و «الجامع الكبير» و «تفسير الموطأ» وكتاب «المناسك» وكتاب «سماعي عن مالك» و «أهوال يوم القيامة» و «البيع» و «المغازي» و «الرضا» .

كيف كان سماعك عن ابن وهب ؟ فقال لي : «يا بني أقال أحد فينا شيئا ؟» ثم قال : «والله ما أحب أن يعذب الله أحدا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، بسببي بالنار» ـ أبطل الله سعيه وصومه وصلاته وسائر عمله إن كنت أخذتها من ابن وهب إلا قراءة ـ قرأت عليه أنا وقرأ علي ولو كانت إجازة لقلت : إنها إجازة ، وقد حضرت ابن وهب ، وأتاه رجل بكتبه في تليس فقال له : «يا أبا محمد هذه كتبك» فقال له ابن وهب «صححت وقابلت ؟ فقال نعم» فقال له : «اذهب فحدث بها فقد أجزتها لك ، فاني حضرت مالكا وقد فعل مثل ذلك» .

يقدم الأستاذ شاوش رأيه في إقامة بكر بالقيروان بكونها كانت إقامة قصيرة «سنة أو أقل» ثم يجيب عن تساؤله : هل كانت قراءته على الشيخ عون قبل ذهابه إلى العراق أو بعد الرجوع منه ؟ بقوله : الظاهر الأول ، ولكني أميل إلى رأي الدكتور محمود علي مكي في الفصل السابق بأن بكر بن حماد لم يمكث بالقيروان مكوث الدرس والتحصيل في ذهابه إلى المشرق ، وإنما فعل ذلك بعد عودته من بغداد ، وذلك لسببين :

1 ـ ان سنة أو أقل ليست كافية لشاب في حداثة سنه أن يلم بكتب ابن وهب التي يدرسها الشيخ عون الخزاعي .

2 ـ أن طريقة حوار بكر بن حماد لأستاذه الشيخ عون تدل على أنه قد تجاوز مرحلة الأخذ الأوَّلي للمعلومات، وإنما هو جلس إلى الشيخ عون للاستفادة العليا وللإجازة.

ثم يطرح تساؤلا آخر عن توقف بكر بن حماد بمصر هل كان ذلك أثناء ذهابه إلى العراق أو بعد ايابه منه أو أثناءهما؟ وان هذا السؤال لا نجد له جوابا في النصوص التي بين أيدينا وإني لأعجب من هذا، فمادامت الطائرة لم تكن ضمن وسائل السفر في عصر بكر بن حماد فانه من المتحتم عليه أن يمر بمصر وأن يتوقف بمراكزها العمرانية أثناء ذهابه وأثناء عودته

يضيف سؤالا آخر جديرا بالاهتمام وهو هل أدى شاعرنا فريضة الحج، وزار البقاع المقدسة أم لا؟ ولكني أجده يجيب بنفسه دون أن يشعر حين يقول: «وخصوصا في القرون الوسطى حيث كان المغاربة يقصدون البلاد الشرقية لا لأداء فريضة الحج فحسب ولكن لاكتراع العلوم من ينابيعها الأصلية أيضا»[25].

---

(25) «الدر الوقاد» لمحمد بن رمضان شاوش ـ ص: 47 المطبعة العلوية ـ بمستغانم 1385 هـ = 1966 م.

ان الهدف الأول من الاتجاه إلى الشرق في عصرهم هو طلب العلم ، وليس كما هو الحال في هذا العصر وما سبقه من أزمنة الجهل والظلام حيث تحولت مراكز الحضارة والعلم والثقافة وأصبح الحج وسيلة من وسائل الخروج من القبر الاستعماري أو من ظلم وسطوة الأمراء ؛ ثم أداء فريضة الحج كان المسلمون يقومون به على وجهه الصحيح وبمعناه الأسمى ، أداء الفريضة وكفى ، وليس مهرجانا ولقبا وصفة تضاف إلى الحيثيات .

يتحدث بعد ذلك عن دخول ابن حماد البصرة والكوفة وعن استقراره ببغداد ، وأنه أخذ الحديث عن الأعلام الأربعة من مشاهير المحدثين بالعراق : الشيخ عمر ابن مرزوق البصري ، ومسدد بن مصرهد الأسدي ، وأبي الحسن البصري وبشر بن حجر ، كما أخذ عن العالم النحوي اللغوي المقرىء أبي حاتم السجستاني المتوفى عام 250 هـ (865 م) .

وأنه التقى بالشاعر الظريف الماجن الهجاء محمد بن يسير الرياشي الذي لم يفارق البصرة ولم يفد على خليفة أو أمير أبدا . وأبي عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي الراوية النسَّابة المتوفى عام 231 هـ (845 م) .

واجتمع بالأدباء والشعراء خاصة دعبل الخزاعي وأبي تمام وعلي بن الجهم ، وفوق كل ذلك اتصاله بالخليفة المعتصم ومدحه له ، وأخذ صلاته الجزيلة .

أهم إضافة في هذا المجال هي التراجم التي وفرها الأستاذ محمد بن رمضان شاوش بارك الله فيه وأثابه فقد ترجم للإمام سحنون ولابن وهب في صفحة 4 وترجم للإمام مالك في صفحة 45 ، وترجم للخليفة المعتصم وللشاعر دعبل في صفحة 46 ، وللسجستاني وللرياشي ولابن الأعرابي في صفحة 47 ، وترجم لأبي تمام في صفحة 70 ، ولعلي ابن الجهم ، ولقاسم بن أصبغ البياني في صفحة 48 .

يؤكد الأستاذ شاوش ان إقامة بكر بن حماد في العراق ، كانت طويلة ، وذلك بناء على أنّه لا يوجد نص يرد فيه ذكره بالمغرب قبل نص أبي العباس أحمد المقري في نفح الطيب عندما يروي أن قاسم بن أصبغ البياني التقى ببكر بن حماد في القيروان وأن أصبغ رحل من الأندلس إلى المشرق سنة 274 هـ (887 م) .

ثم هناك إضافة أخرى في خبر المقري إذ نجد نهاية الخبر في كتاب الشيخ مبارك الميلي ، ومقال الدكتور محمود علي مكي بعد احتكام الأستاذ بكر بن حماد والتلميذ قاسم ابن أصبغ البياني إلى ذلك الشيخ الذي أعطى الحق للتلميذ

هكذا ، قال بكر بن حماد ـ وقد أخذ بأنفه ـ رغم أنني للحق ...» .

وفي كتاب «الدر الوقاد هكذا ... قال بكر بن حماد : رغم أنني على الحق ، وانصرف ، انتهى» ثم زاد المقري قائلا : «وهذه الحكاية دالة على عظم قدر الرجلين رحمهما الله تعالى ورضي عنهما ونفعنا بهما»[26] .

ثم يقدم لنا الأستاذ إضافة أخرى رواية عن أبي بكر عبد الله المالكي لما وقع بين بكر وبين فقيه القيروان أحمد بن أبي سليمان داود الصواف وهي :

«قال أحمد : دخل عليَّ بكربن حماد فتحدث عندي ساعة فقلت له : ايش قلت ، فقال .. قلت وأنشد له مقطوعة من شعره منها هذا البيت وهو آخرها :

فيا سبحان من أرسى الرواسي
وأوتدها على السبع الشداد

فقال أحمد بن سليمان فلما انتهى إلى هذا البيت قلت له : أمسك ، رفعت الجبال فوق السموات وأنزلت السموات

---

(26) المصدر السابق انظر الحكاية في ، ص : 48 و 49 وفي كتاب تاريخ الجزائر للشيخ مبارك الميلي ج 2 ، ص : 70 .

تحت الجبال فقال لي : وكيف ذلك ؟ قلت له : أقرأ سورة «عم يتساءلون» فقرأها حتى انتهى إلى قوله تعالى «وبنينا فوقهم سبعا شدادا» (الآية 12 من سورة النبأ) فقال لي والله لقد أنشدتها بالعراق ومصر وتاهرت والقيروان فما فهمه أحد وقد كسرته أنت فأصلحه فقلت له : أفلا قلت :

فأوتدها مع السبع الشداد ،

قال : فقال لي : قد أصلحت ما أفسدت»[27]

يعلق الأستاذ شاوش على ذلك قائلا :

«فهذه الحكاية والتي قبلها تدلان دلالة واضحة على أن ابن حماد كان قد رجع من الشرق بعلم غزير وأدب جم ، وأنه كان من رواة الحديث كما كان من هواة الأدب ، وأن مجالسه لم تكن تخلو من مباحثات ومناقشات ومناظرات علمية وأدبية مما يدل على رفعة شأنه في الفقه والحديث ، وعلو كعبه في الأدب والشعر»[28] .

كما يدل النص السابق على أن ابن حماد لم يكن مقيما باستمرار في القيروان وإنما كان يزور تاهرت ، وهو

---

(27) انظر : كتاب (رياض النفوس) للمالكي ج 1 ، ص : 409 و «الدر الوقاد» ، ص : 50 .

(28) «الدر الوقاد» لمحمد بن رمضان شاوش ، ص : 50 .

ما يذهب اليه الأستاذ شاوش أيضا حيث يرجح أنه كان يراوح في إقامته بين العاصمتين «حسبما كان يقتضيه صفاء الجو السياسي وتعكره» بدليل مشاركته في الفتنة التي وقعت ضد أبي حاتم الرستمي سنة 282 هـ (895 م) .

كما يتفق الأستاذ شاوش مع الدكتور محمود علي مكي في أن الشاعر بكر بن حماد قد تردد على أمراء المغرب الأقصى أيضا :

«الظاهر أنه كان يتردد على أمراء المغرب كله أدناه وأوسطه وأقصاه ، بعد أن طاف بجميع أقطار المشرق العربي»[29] .

يطرح قضية عودته إلى تاهرت بسبب وشاية وقعت من منافسيه لدى الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ، ورغم أنه في التعليق يترجم بأن حكم هذا الأمير كان من 261 إلى 289 هـ (875 ـ 902 م) ، وأن الحادثة التي وقعت لأبي عبد الرحمن كانت سنة 295 هـ (907 م) ولا ينتبه إلى أنه ينبغي أن يصحح هذا الخبر ، فالوشاية إن حدثت تكون قد وقعت في عهد الأمير زيادة الله الثالث .

---

(29) المصدر السابق ، ص : 51 .

المهم أن ابن حماد خرج فارا من القيروان مع ابنه عبد الرحمن «ولما بلغا المكان المعروف بقلعة ابن حمة على مسافة قريبة من تاهرت في الناحية الشمالية منها تعرض لهما لصوص في الطريق فجرحوا الأب وقتلوا الابن ، وقد وقعت هذه الحادثة عام 295 هـ (907 م) ثم إن ابن حماد دب دبيبا إلى أن وصل إلى تاهرت وبها قبضت أنفاسه في شهر شوال من عام 296 هـ (909 م) وصلى عليه يوم وفاته الفقيه موسى بن الفارسي[30] .

لقد سبق وأن افترضت أن عملية اللصوص وقطاع الطرق لا تستقيم في نظري ، وإنما هي عملية سياسية تشير إلى التحول الكبير الذي حدث في المنطقة ، وأن الأمور لم تصبح مراقبة من قبل بني الأغلب أو بني رستم أو الأدارسة ، ولكن من قبل قوة ناشئة لم تعلن عن نفسها بعد ، وإذا ثبت وجود ديوان ابن حماد في إيران فقد نجد من خلاله الخيط الذي يلقي الأضواء على محاولة اغتياله .

---

(30) المصدر السابق ، ص : 52 . ونص رواية (معالم الإيمان) للدبّاغ هو : سعي به إلى إبراهيم بن أحمد الأمير وخرج هاربا من القيروان يريد بلده ، فلما صار بشباطة خرج عليه قطاع الطريق فقتل ولده عبد الرحمن ، وجرح بكر جراحات . فما زال في بطنه فتق إلى أن مات وصلى عليه موسى بن البادسي الفقيه» (ج 2 ص : 282 مطابع الدجوي ـ القاهرة 1972) .

يعالج الأستاذ محمد بن رمضان شاوش بعد ذلك المكانة العلمية لابن حماد ومذهبه ، فمن ناحية المكانة العلمية لا يوجد أي اختلاف بل تجمع المصادر على أنه كان عالما بالحديث وتمييز الرجال وأنه كان ثقة مأمونا يروي عنه أهل السنة كما يروي عنه الخوارج .

«لكن هل كان ابن حماد من الخوارج الأباضية كجل سكان تاهرت حينذاك ؟ أم كان من أهل السنة كالأقلية المساكنين لهم ؟

ان سليمان الباروني صاحب كتاب «الأزهار الرياضية» يدعي أن ابن حماد كان ممن جهل مذهبه ، والصواب أنه كان من أهل السنة والجماعة بدليل هجائه لعمران بن حطان الخارجي الشاعر ومعارضته لقصيدته الواردة في مدح عبد الرحمن بن ملجم المرادي قاتل الإمام علي كرم الله وجهه»[31] .

أما الدكتور محمود علي مكي فقد أشار بأنه سني متطرف ، في حين يذهب الأستاذ شاوش إلى إمكانية أن يكون من الخوارج في بادىء أمره ، أي قبل مغادرته تاهرت ، وعلى فرض صحة هذا فإنه يكون بعد الإقامة الطويلة بالعراق

---

(31) المصدر السابق ، ص : 52 و 53 .

وبأفريقية قد رجع إلى مذهب أهل السنة والجماعة نتيجة للإقامة الطويلة بين جماعة أهل السنة .

ثم يعالج موضوع مكانته الأدبية وشعره فيعطينا تفصيلا للجهود التي بذلها في جمع الأشعار التي ضمها القسم الرابع من كتابه وهي :

14 مقطوعة و 5 قصائد فقط ، وأطول قصيدة له هي القصيدة التي عارض بها الشاعر ابن حطان الخارجي المتقدم ذكره على أن هذه القصيدة لا تتضمن إلا ستة عشرة بيتا ، لكن أغلب القطع التي أثبتناها له ناقصة لا تتألف إلا من ستة أبيات أو خمسة أو أربعة أو ثلاثة أو بيتين وحتى من بيت واحد فقط ، ونقصها هذا يدل دلالة واضحة على ضياع أكثر شعره لأسباب عديدة منها :

1 ـ ولوع المغاربة برواية وحفظ إنتاج المشارقة وإهمال ما تنتج قرائح أبناء وطنهم ...

2 ـ إهمال المشارقة لإنتاج المغاربة ولو كان هذا الإنتاج ذا قيمة فنية لأن المغرب كان في نظرهم موطن الجهل والأمية والرطانة .

3 ـ إقامة شاعرنا بالمشرق تلك المدة الطويلة التي

جعلت المغاربة يجهلونه والمشارقة يتجاهلونه فلم يحفلوا بشعره ولا دونوه .

4 ـ تقادم عهده حيث أنه عاش في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)[32] .

إننا نوافق الأستاذ محمد بن رمضان شاوش في تحليله هذا جملة ، وأما تفصيلا ، فإن تقادم العهد لن يكون سببا في الضياع من جهة ، ومن جهة أخرى فإننا لا نوافق على ضم قصيدة هجو الخليفة المعتصم العباسي إلى أشعار بكر ابن حماد لأن رواية كتاب الأغاني صريحة في ذلك ، وكما تقدم فإن ابن رشيق نسب بيتين فقط وهما الخامس والسادس لبكر مع عدم الجزم بذلك ، وهناك من نسبها إلى دعبل ولكنه أنكرها ونسبها إلى إبراهيم بن المهدي العباسي ، فكيف جاز للأستاذ محمد بن رمضان شاوش ضمها إلى أشعار بكر بن حماد بحجة الشك الذي حام حولها فقط ، وهذا قوله : «فما دام يحوم حولها الشك فإننا ننسبها لبكر ابن حماد لأنها لا تبعد عن روحه وأسلوبه ، ويؤكد هذه النظرية مقطوعته الشعرية التي تليها والله أعلم بالحقيقة»[33] .

(32) المصدر السابق ، ص : 54 .

(33) نفس المصدر ، ص : 67 انظر التعليق رقم 1 وانظر : ص : 14 من هذا الكتاب .

ان الشك طريق اليقين حقيقة ، ولكن في غير هذا الباب لأن روح بكر بن حماد تأبى ذلك فالثابت أنه مدح الخليفة المعتصم ، ثم إنّ القطعة الشعرية الموالية لا تؤيد نظرية الأستاذ شاوش ، بل بالعكس تعارضها ، وترفضها تماما ، فكيف يمكن أن نتخذ من تحريض بكر بن حماد للمعتصم على دعبل دليلا على أن بكر بن حماد يطاوعه لسانه قبل ذلك أو بعده في هجاء الخليفة المعتصم ؟ لست أدري المنطلق الذي اعتمده الأستاذ شاوش ، ولكني متأكد من صدقه وإخلاصه وبذل كل ما في استطاعته لضم ما أمكن ضمه إلى هذا الشاعر الذي ظلمه التاريخ بضياع أشعاره واختفاء ديوانه طيلة قرون ، بيد أن نقص (9) تسعة أبيات من مجموع ما نعرفه من أشعار بكر بن حماد لا ينقص من قيمته ولا يؤثر على مكانته في نفوس الأجيال التي ستحبه أكثر وتسعى بجد وإخلاص إلى إخراج ديوانه إلى النور وكشف حقيقته التي ستصبح واقعا ملموسا وليس مجرد جملة نائمة في ترجمته في كتاب الأستاذ عادل نويهض (معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى منتصف القرن العشرين).

ثم يعالج الأستاذ قضية المجتمع وعلاقة الشعر بما فيه من تيارات ونزعات وأن الذي كان سائدا في العراق زمن ابن حماد هما نزعتان :

1 ـ الإفراط في اللهو والمجون .

2 ـ الإفراط في الزهـد .

ويرجح الأستاذ شاوش أن بكر بن حماد كان بغريزته ميالا إلى أصحاب النزعة الثانية ، أي من الناس الذين زهدوا في الدنيا وزينتها وأعرضوا عنها كل الإعراض ولذلك نجد الزهد هو الغالب على شعره والوعظ هو المسيطر على أدبه»[34] .

وذلك بناء على تحليل ما توفر لدينا الآن من إنتاجه (قصيدتان الأولى 7 أبيـات والثانيـة من 12 بيتـا وثلاث مقطوعات الأولى من 4 أبيات والثانية من 5 أبيات والثالثة من 3 أبيات) وبتعبير أصح قصيدة وأربع قطع كلها في الزهد والمواعظ وبلغة الأرقام 31 بيتا في الزهد من المائة بيت المتوفرة بمعنى أن قرابة ثلث ما لدينا من شعر بكر بن حماد هو في الزهد والمواعظ .

وبنفس المنطق يواصل الأستاذ شاوش تحليله لمجموع شعر ابن حماد بعد أن يلصق به شبهه بأبي العتاهية ، ولحسن الحظ فإنه يختم رأيه في هذا القسم بقوله : «لكن قلة ما

---

(34) (الدر الوقاد) لمحمد بن رمضان شاوش ، ص : 55 و 56 المطبعة العلوية مستغانم (1385 هـ = 1966) .

بأيدينا من شعر ابن حماد لا يبرر إصدار حكم نهائي في شأنه ، إذ المستقبل كشاف»[35] .

هذا هو الرأي الصواب ، فإن هذا الموضوع مرهون الآن بالإطلاع على ديوان ابن حماد ، هذا الأمل الجديد الذي سيكشف الحقيقة ، ويجعلنا نتعامل مباشرة مع الشاعر نفسه ، أما الآن فنحن نقيم هذا الشاعر من خلال أذواق الرواة وأفكارهم ، وإنني شخصيا أميل إلى أن أسلوب ابن حماد أقرب إلى أبي نواس ومسلم بن الوليد صريع الغواني . وأن ما قاله ابن حماد في مجال الزهديات والمواعظ ليس إلا نتيجة للأحداث الأخيرة في حياته ، وليس نتيجة تأمل ورؤية فلسفية .

*

* *

يقدم الأستاذ محمد بن رمضان شاوش أشعار بكر ابن حماد في القسم الرابع ، وقد بذل جهدا مشكورا في تبويبها وإعطاء عناوين للقصائد وأشبعها شرحا وتعليقا بصورة لا مزيد عنها وذكر بحر القصيدة أو القطعة أو البيت

---

(35) المصدر السابق ، ص : 57 .

وهكذا نعرف أن ابن حماد قد استعمل من البحور «الطويل» (8 مرات) و «الكامل» (4 مرات) و «البسيط» (3 مرات) و «الوافر» (3 مرات) و «السريع» مرة و «الرجز» مرة .

وان كان لنا مأخذ على الأستاذ شاوش في هذا القسم فهو عدم الإشارة إلى المصدر أو المرجع الذي نقل منه النص الشعري الذي يقدمه ويشرحه ويعلق عليه ، طبعا ان هذا لا ينقص من قيمة هذا الكتاب الذي يعتبر أوفى مرجع إلى الآن اهتم بالشاعر الأديب بكر بن حماد ، وأعطاه ما يستحق من العناية والبحث وإني أقترح على المؤسسة الوطنية للكتاب أن تحاول إعادة طبع هذا الكتاب تعميما للفائدة وتنويها بصاحبه وأن تتعاون معه في مشروعاته التي أشار اليها في آخر الكتاب .

وأهم جزء في الكتاب هو هذا القسم الخاص بالنصوص وقد وزعها إلى أبواب هي :

1 ـ باب الوصف وفيه القطعة الخاصة «بجو تاهرت شتاء» من بحر (السريع) ص 61 .

2 ـ باب الهجاء وفيه قصيدة هجو عمران بن حطان الشاعر من بحر (البسيط) ص 62 .

وفيه قصيدة هجو «الخليفة المعتصم العباسي» من بحر (الطويل) ص 67 وفيه قطعة تحريض المعتصم على دعبل من بحر (الطويل) ص 70 .

3 ـ باب المدح وفيه قطعة «مدح أحمد بن سفيان» من (الطويل) ص 71 .

وفيه قطعة «مدح أحمد بن القاسم» من البحر (الكامل) ص 72 .

وفيه قطعة «مدح أبي العيش» من بحر الكامل ص : 74 .

4 ـ باب الزهد والوعظ وفيه قطعة «الخير في الدنيا قليل» من البحر (الطويل) ص 75 .

وهذه القطعة هي التي حذف جزأها الخاص بالمحدث أبي معين ولهذا إذا أضفنا لها هذا الجزء تخرج من باب الزهد .

وفيه قطعة «السفر من غير زاد» من بحر (الوافر) ص 7· .

وفيه قطعة «تفضيل بعض الناس على بعض» من بحر (الطويل) ص 77 .

وفيه قصيدة «ذكر الموت» من بحر (الطويل) ص 78 .

وفيه قصيدة «وقفة بالقبور» من بحر (البسيط) ص 80 .

5 ـ باب الاعتذار وفيه قطعة (الاعتذار إلى أبي حاتم يوسف) من بحر (الطويل) ص 83 .

وفيه قطعة «رد الملوك إلى محل قرارهم» من بحر (الكامل) ص 85 .

6 ـ باب الرثاء وفيه قصيدة «رثاء ابنه عبد الرحمٰن» من بحر (الوافر) ص 87 .

وفيه قطعة «رثاء ابنه عبد الرحمٰن أيضا» من بحر (الطويل) ص 89 .

وفيه قطعة «رثاء تاهرت بعد تخريبها» من بحر (البسيط) ص 90 .

وفيه قطعة «رثاء دعبل وابن الخصيب» من بحر (الكامل) ص 91 ، وفيه بيت «رثاء الشاعر نفسه» من بحر (الرجز) .

*

* *

أما القسم الخامس فقد خصصه للأسماء العلمية الواردة في شعر بكر بن حماد . والقوافي والمصادر والمراجع . وفي رأيي أن أهم فقرة في هذا القسم هي فقرة المصادر ولهذا فإني أثبتها تعميما للفائدة . وحثا للهمم عساها تتجه صوبها لاستخراج ما فيها من كنوز :

- «الأزهار الرياضية» لسليمان الباروني ق 2 / مصر بلا تاريخ .
- «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني ج 20/ بيروت 1959 .
- «البيان المغرب» لابن عذاري ج 1/ بيروت بلا تاريخ .
- «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» لمبارك الهلالي ج 2 / 1954 .
- «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» لمبارك الهلالي ج 2/ بيروت 1963 .
- «خزانة الأدب» لعبد القادر البغدادي ج 3/ بولاق 1959 .
- «رياض النفوس» لأبي بكر المالكي ج 1/ القاهرة 1958 .
- «شرح على ألفية ابن مالك» للماكودي ج 1/ مصر 1305 هـ .
- «ظهر الإسلام» لأحمد أمين ج 1/ القاهرة 1946 .
- «العمدة» لابن رشيق/ القاهرة بلا تاريخ .
- «مجموع المنتخبات العربية» للفيف من الأساتذة/ الجزائر 1945 .
- «معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان» للدباغ / تونس 1220 .
- «المسالك والممالك» للبكري (قسم المغرب) باريس 1911 .

– «المنتخب المدرسي من الأدب التونسي» لعبد الوهاب/ القاهرة 1944 .

– «نظم الدر والعقيان في ذكر شرف بني زيان» للتنسي (مخطوط في مكتبة ثانوية الحكيم ابن زرجب بتلمسان»[36] .

*

* *

ان أهم ما يستنتجه الدارس لكتاب «الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي» للأستاذ محمد بن رمضان شاوش في نظري هو :

ـ أنه أول مجموع لأكبر قدر أمكن حتى الآن من شعر أبي عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل بن أبي اسماعيل الزناتي أصلا التاهرتي نشأة ودارا ووفاة حسب تعبير الأستاذ شاوش نفسه .

ـ أنه عمل جليل يستحق التنويه والتقدير والاكبار ، فقل أن يذكر علم من الأعلام إلا وعلق عليه ولو بترجمة وجيزة أو مكان إلا وأفاد بموضعه وبما آل اليه حاله الآن من العمران أو تغيير الاسم أو العفاء والاندثار ، ولهذا فهو

---

(36) نفس المصدر ، ص : 98 .

إلى جانب اعتباره مصدرا أساسيا الآن في أشعار ابن حماد ، فهو مرجع مهم لعدد لا يستهان به من الشخصيات العلمية والأدبية والسياسية .

ـ أنه برهان ودليل وحجة قاطعة على أن «التقاديم» حسب تعبيره والجمع والشرح لأعمال أسلافنا من الأدباء والشعراء والعلماء هي ميادين خصبة لابد أن يتلفت اليه شباب الجزائر الناهضة ، بل وشيوخها ورجال العلم والأدب فيها حتى تتكاتف الجهود ، كل بما يقدمه من لبنة ولو بسيطة ، لبناء صرح تاريخنا الفكري والثقافي والأدبي والسياسي والعلمي ، وليس ذلك بعزيز على أبناء وحفدة ثورة أول نوفمبر 1954 الطموحة إلى تحقيق الانتصار الكامل على كل أسباب التخلف والهوان ، وكما انتصرنا بالأمس على الأسباب الظاهرة للاستدمار فإننا سننتصر اليوم وغدا على الأسباب المستترة لذلك التخلف والجهل والمهانة ، وهي معركة أطول وأخطر وأشد ضراوة من المعركة الأولى رغم أنها لا تستعمل إلا الوسائل الفكرية والعلمية .

فهل تتحرك الهمم ؟

ـ وأهم نقطة تحتاج إلى تحقيق وجهد هي إقامة بكر بن حماد بعد عودته من المشرق العربي أين كانت ؟

هل بالقيروان ؟ أم برقادة وبالقيروان ؟ أم بينهما وبين تاهرت ؟ وهل نزل فعلا في إحدى عواصم الدولة الإدريسية أو أكثر من واحدة من مدن المغرب الأقصى ؟ أم أن مدائحه هي التي كانت تذهب مغربة وتأتيه الجوائز والصلات ؟

ـ أما زيارة الأندلس فأكيد أنها لم تحصل وذلك لانتمائه الوثيق إلى بغداد وأصحابها .

الفصل الثامن
أشعار بكر بن حماد

تحصلنا على سبعة ومائة بيت من الشعر (107) المنسوب للشاعر بكر بن حماد ، واحد وثمانون بيتا منها اشترك فيها صاحب كتاب «الدر الوقاد» مع واحد على الأقل ممن تحدثوا عن ابن حماد واستعرضنا مقالتهم في الفصول السابقة ، وينفرد الأستاذ محمد بن رمضان شاوش بثلاثة وعشرين بيتا ، وتفوته ثلاثة أبيات فقط هي أبيات الغزل التي نقلها صاحب كتاب «ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية» عن أبي إسحاق الرقيق مؤرخ أفريقية ، وذكرها الدكتور محمود علي مكي والأستاذ محمد الطمار[1].

---

(1) لهذا قال الأستاذ شاوش في ص : 57 .

«خلافا لأبي العتاهية الذي شيب بعتبة جارية الخليفة المهدي و كثر فيها التغزل ، فإننا لم نظفر لابن حماد ولو ببيت واحد في هذا الغرض مع أنه طرق جل المواضيع التي طرقها الشعراء المعاصرون له فلا ندري أسبب ذلك ضياع ما قاله في الغزل ام كان متعففا راغبا عن ذلك زاهدا فيه منذ صغره شأن الزهاد المنقطعين للعبادة المعرضين عن الدنيا كل الاعراض حتى في شرخ شبابهم ؟

ما أظن أن ذلك يثبت بعد الاطلاع على النسخة الموجودة في إيران من ديوان الشاعر بكر بن حماد ، وان تردد بكر على حدائق رقادة يشير إلى انه قد أخذ بنصيبه من الدنيا .

تتوزع هذه الأبيات الشعرية على تسع عشرة موضوعا منها ما يصل إلى حجم القصيدة أي أنه يحتوي على أكثر من سبعة أبيات ، ومنها ما يدور في فلك حجم القطعة بمعنى أنه من سبعة أبيات فما دون إلى مستوى البيتين والبيت الواحد اليتيم .

سنتبع نفس التبويب الذي سار عليه الأستاذ محمد ابن رمضان شاوش في كتابه «الدر الوقاد» إلا ما استثنيناه من اختياره أو ما خالفناه في الباب الذي وضعه فيه أو ما لم يذكر هو ، وهي ثلاثة أشياء محددة :

1 ـ عدم اعتبار قصيدة هجو الخليفة المعتصم من شعر بكر بن حماد .

2 ـ الحاق الأبيات التي تهاجم المحدث يحيى بن معين بأخواتها وبذلك تخرج القطعة من باب الزهد والوعظ لتدخل في باب النقد والتعفف عن كلمة الهجاء .

3 ـ إثبات أبيات الغزل والتشبيب .

باب الوصف والغزل

بـرد تـاهــرت

ذكر هذه القطعة كل من الشيخ مبارك بن محمد الهلالي الميلي في كتاب (تاريخ الجزائر في القديم والحديث) في الفقرة (14) الخاصة بتيهرت ، كما ذكرها الدكتور محمود علي مكي والأستاذ محمد الطمار مع رواية صدر البيت الأول بصيغة (ما أحسن البرد وريعانه) ، وننقل النص كما ورد في كتاب (الدر الوقاد) ، مع إضافة حرف الفاء في أول البيت الثالث حيث أثبت هو (نحن في بحر) .

قال الشاعر يصف جو مدينة تاهرت شتاء (السريع) :

مـا أخشـن الـبـرد وريـعـانـه
وأطـرف الشمـس بـتـاهـرت
تبـدو من الـغـيـم ، إذا مـا بـدت
كـأنهـا تنشـر من تخـت

فنحـــن في بحـــر بـــلا لجـــة

تجـري بنـا الريـح على السمـت

نفــرح بالشمـس إذا مـا بــدت

كفـرحـــة الـذمـيِّ بالسبـــت[1]

(1) من افادات كتاب «الدر الوقاد» ، اللغوية في ص : 61 قوله بتصرف : ريعان كل شيء أوله (والتخت) لفظة فارسية معناها السرير ، وهنا مستعملة بمعنى الفراش ، شبه الثلج الكثير المتراكم بالبحر حال هدوئه ـ والذمى هو كل كتابي أُعطي الذمة أي الأمان بمعنى أنه آمن على نفسه وماله وعرضه مقابل الجزية التي يؤديها ـ ان كان قادرا ـ لجماعة المسلمين والمراد هنا هو اليهودي الذي يفرح بيوم السبت .

ورد الخـــدود

وردت حكاية هذه الرقعة التي تحمل بيتين من بحر (الطويل) بعدهما تعليق ببيت من بحر (الوافر) في كتاب (ورقات) للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب . وفي مقال الدكتور محمود علي مكي في مجلة (العربي) . وفي كتاب (تاريخ الأدب الجزائري) للأستاذ محمد الطمار ، وننقلها من كتاب (ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية) (القسم الأول صفحة 370) .

«ومن طريف ما حكاه أبو إسحاق الرقيق – مؤرخ أفريقية الكبير – قال :

كان بكر بن حماد – الشاعر الأديب – ينتجع إبراهيم ابن أحمد بن الأغلب ، ويمدحه بغرر القصائد ، فغدا يوما إلى (رقادة) بمديح له ، وقصد الفتى (بلاغ) خادم

الأمير ، فقال له الفتى : الأمير عنا مشغول في هذا اليوم ، قال بكر : فألطف بي في إيصال رقعة اليه ، فقال : إنه مصطبح في جنان قصره مع الجواري ، ولا يصل اليه أحد ، فارتجل بكر مقطوعا كتبه في رقعة واحتال (بلاغ) في إبلاغها ، مساعدة للشاعر ، وكان في الرقعة أبيات منها :

خلقــن الغــواني للــرجال بليـــة
فهــن مــوالينــا ونحـــن عبيـدهــا
إذا مـــا أردنـا الورد في غـير حينـه
أتتنـــــا بـه في كـل حين خدودها

وكتب تحت هذه القطعة بيتا يقول فيه :

فـــان تكـــن الوســائـل أعـوزتـني
فـــان وســائــلي ورد الخــــدود .

باب الهجاء والتحريض والنقد

معارضة قصيدة عمران بن حِطّان

ورد نص هذه القصيدة في كتاب (تاريخ الجزائر في القديم والحديث) للشيخ مبارك الميلي ، وكتاب (تاريخ الأدب الجزائري) للأستاذ محمد الطمار ، وفي كتاب «الدر الوقاد» للأستاذ محمد بن رمضان شاوش ، وكما تقدم أن الشيخ مبارك رآها عند التنسي وفي (مروج الذهب) للمسعودي من غير نسبة ثم وقف عليها منسوبة لبكر بن حماد في كتاب (طبقات الشافعية الكبرى) ، للإمام عبد الوهاب السُّبكي ، وهي تعتبر أطول نص بين أيدينا حتى الآن لهذا الشاعر.

يقول صاحب «الدر الوقاد» من شعر بكر بن حماد .

قال يهجو عمران بن حطان الخارجي الشاعر ويعارض قصيدته التي مدح بها عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (البسيط) :

قــل لابــن ملجــم والأقــدار غالبــة
هــدمــت ـ ويلــك ـ للإسلام أركانــا
قتلــت أفضــل مــن يمــشي على قــدم
وأول النـــاس إسـلامــا وإيمــانــا
وأعلــم النـــاس بالقـــرآن ، ثم بما
ســن الرســول لنــا شــرعــا وتبيــانــا
صهـــر النبـــي ، ومـــولاه ، وناصـره
أضحـــت مناقبُــهُ نـــورا وبــرهـانـــا
وكــــان منــــه على رغم الحسـود لـه
مـكـــان هــارون من مـوسى بن عمرانا
وكـــان في الحـــرب سيفـا صارمـا ذكرا
ليثـــا إذا لـقي الأقـــران أقـرانـا
ذكـــرت قــاتلــه والـدمـع منحـدر
فقلــت سبحــان رب النـــاس سبحانا
إني لأحسبـــه مـــا كـــــان مــن بشر
يخشى المعـــاد ، ولكــن كان شيطانا
أشقــى (مـــراد) إذا عُـــدَّت قبائلها
وأخســـر النـــاس عند الله ميـزانـــا
كعــاقـــر النــاقـــة الأولى التي جلبت
عـلى ثمــود بـأرض الحـجـر خسرانا

قـد كـان يخبرهـم أن سوف يخضبهـا
قبـل المنيـة أزمـانـا فـأزمـانـا
فـلا عفـا الله عنـه مـا تحملـه
ولا سقـى قـبر عمـران بن حطـانـا
لقـولـه في شقـي ظـل مجـترمـا
ونـال مـا نـالـه ظلمـا وعـدوانـا
«يا ضـربـة من تـقي ما أراد بها
إلا ليبلـغ من ذى العرش رضوانا»
بل ضـربـة من غـوي أورثته لظـى
مخلـدا قـد أتـى الرحمـن غضبانا[1]

---

(1) من هوامش هذه القصيدة في كتاب (الدر الوقاد) ترجمة الشاعر عمران بن حطان في ص : 52 وهي : هو من شراة الخوارج وكان من أكابر خطباء الخوارج وشعرائهم ومن أفضل فقهائهم وأصحاب فتياهم ، ومن أشد دعاتهم ، وكان رأس القعدة منهم أدرك صدرا من الصحابة وروى عنهم وروى عنه أصحاب الحديث ، وكان بليغا مفوّها وخطيبا مبينا توفي بالكوفة عام 89 هـ (707 م) .

كما ذكر مقطعا من قصيدته المعارضة :

لله در المـــرادي الـــذي سفكـــت
كفـــاه مهجـــة شـــر الخلـق إنسانـا
مـــى عشيـــة غشـــاه بضربتـه
ممـــا جنـــاه مـن الآثـــام عريـانـا

كأنه لم يرد قصدا بضربته

إلا ليصلى عذاب الخلد نيرانا

يا ضربة من تقي ما أراد بها

إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا

إني لأذكره حينا فأحسبه

أوفى البرية عند الله ميزانا

ومراد هي قبيلة عبد الرحمن بن ملجم . بداية البيت الرابع عشر وردت في كتاب (تاريخ الجزائر) برواية أخرى وهي «يا ضربة من لتي» وعنه نقل الطمار بدليل أن الخطا الواقع في البيت الخامس عشر يتكرر أيضا وهو : «بل ضربة من ذوى» ولا معنى لذوى هنا .

تحريض أمير المؤمنين على دعبل

وردت أبيات هذه القطعة في كتاب (ورقات ...) وفي مقال الدكتور محمود علي مكي وفي كتاب (الدر الوقاد) .

عرف الشاعر دعبل الخزاعي بهجاء خلفاء بني العباس هجاء مقذعا وقد رأى بكر في هجاء دعبل للخليفة المعتصم ما يدعوه للتحريض على الإيقاع به ، والغريب أنا نراه فيما بعد يذكر موته بنوع من الأسف للموت الذي أصابه في أرض بعيدة .

يرد ذكر الشاعر الكبير أبي تمام حبيب بن أوس الطائي في البيت الرابع من هذه القطعة ، ولسنا ندري هل هو إضافة للقطعة بعد عتاب أبي تمام أم هو ارتجال بعد العتاب ؟ والقطعة من البحر (الطويل) :

أيهجو أمير المؤمنين ورهطه
ويمشي على الأرض العريضة دعبل ؟
أما والذي أرسى (ثبيراً) مكانه
لقد كادت الدنيا لذاك تزلزل
ولكن أمير المؤمنين بفضله
يهم فيعفو ، أو يقول فيفعل
وعاتبني فيه «حبيب» وقال لي
لسانك محذور ، وسمك يقتل
وإني ـ وإن صرفت في الشعر منطقي ـ
لأنصف فيما قلت فيه وأعدل

لماذا يقل الخير ويزيد «الحديث»

ورد الجزء الأول من هذه القطعة عند كل من الأستاذ محمد بن رمضان شاوش في كتابه (الدر الوقاد) والدكتور محمود علي مكي في مقاله عن ابن حماد التاهرتي في مجلة (العربي) عدد 53 ، وينفرد الدكتور ببقية القطعة ، لهذا فإنني أعتبره مصدري فيها .

يثبت الأستاذ شاوش في مطلعها (لقد جفت) ويعلق عليها بإثبات الجفاف واليبس مما لا يدع مجالا للقول بالخطأ المطبعي أما الدكتور فيثبتها هكذا : «لقد جفّت ...» من الاحاطة والاشتمال ، وهي من البحر (الطويل) .

لقـد حفّـت الأقـلام بالخلق كلهـم
فـمنهـم شـقي خائـب ، وسعيـــد

تمـــر الليـــالي بـالنفـوس سريعــة
ويبـــدىء ربي خلقـــه ويعيـــد
أرى الخـــير في الدنيـا يقـل كثـــيره
وينقـص نقصـا و «الحديث» يزيد[2]
فلـو كـان خـيرا قـل كالخير كلـه
وأحسب أن الخـير منـــه بعيـــد
و «لابـن معـين» في الرجـال مقالـة
سيسـأل عنهـا والمليـك شهيـــد
فـإن يـك حقـا قولـــه فهـو غيبـة
وإن يـك زورا فـالقصـاص شديـد
وكـــل شيـاطـين العبـاد ضعيفـة
وشيطـان أصحـاب الحديـث مريـد

---

(2) في رواية كتاب (الدر الوقـاد) لآخر صدر هذا البيت خلاف هو : «يقل بكثرة» ، كما يدعم رأيه في اختيار جفت على حفت بقوله صلى الله عليه وسلم : «وضعت الأقلام وجفت الصحف» (الحديث 19 من الأربعين النووية) .

باب المدح

مدح أحمد بن سفيان

انفرد الأستاذ محمد بن رمضان شاوش بذكر بيتين وردا في مدح أحمد بن سوادة التميمي عامل الأغالبة على إقليم الزاب أولا ثم طرابلس ، ثم صقلية ، وله في إيطاليا فتوحات مشهورة توفي بالقيروان عام 260 هـ (874 م) .

يبقى السؤال مطروحا متى مدحه ابن حماد هل وهو على طرابلس ؟ أم في شيخوخته بالقيروان ؟ أما صاحب كتاب (الدر الوقاد) فيقول :

قال يمدح أحمد بن سفيان أمير الزاب من البحر (الطويل) :

وقائلة زار الملوك فلم يفد
فيا ليته زار ابن سفيان أحمدا
فتى يسخط المال الذي هو ربه
ويرضي العوالي والحسام المهنّدا

مـدح أحمـد بـن القـاسـم

جاء ذكر هذه القطعة عند كل من الدكتور محمود علي مكي الذي اكتفى بذكر نصفها أي الأبيات الثلاثة الأولى ، وصاحب كتاب «الدر الوقاد» الذي ينقل عن «البيان المغرب» لابن عذارى المراكشي (ج 1 ص 236 و 237) ويشير في التعليق أن مدينة كرت «هي التي يسميها الإدريسي كرط بالطاء بدلا من التاء» أما الدكتور محمود ، فإنه يكتبها (كورت) ، قال الأستاذ محمد بن رمضان شاوش في (الدر الوقاد) .

وقال يمدح الأمير أحمد بن القاسم بن إدريس صاحب مدينة كرت : (الكامل) :

إن السماحـــة والمـــروءة والنـــدى
جمـعـــوا لأحمـد من بني القـــاسم[1]

---

(1) رواية الدكتور محمود لأول عجز هذا البيت هكذ : جمعت لأحمد ، وهي أصح لغة .

وإذا تفاخرت القبائل وانتمت
فافخر بفضل محمد وبفاطم[2]
وبجعفر الطيار في درج العلا
وعليٍّ ، العضب الحسام الصارم
إني لمشتاق اليك ، وإنما
يسمو العقاب ، إذا سما ، بقوادم
فابعث إلي بمركب أسمو به
عَلِّي أكون عليك أول قادم
واعلم بأنك لن تنال محبة
إلا ببعض ملابس ودراهم

(2) من إفادات صاحب كتاب (الدر الوقاد) في تعاليقه على هذه القطعة قوله : المراد بها فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحذفت منها التاء لضرورة الشعر ، وفخر الممدوح بها وبأبيها لأنه من ذريتهما حيث أنه من سلالة إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . كما أضاف في تعليق على البيت الأخير : لما قرأ الأمير هذه الأبيات بعث له ببغلة سنية وبصلة جزيلة حسبما ذكره ابن عذارى في البيان المغرب ، ص : 337 .

مـدح أبي العيـش

نجد نص هذه الأبيات عند الأستاذ شاوش وعند الأستاذ محمد الطمار في كتابه (تاريخ الأدب الجزائري) بهذا التقديم الذي لا يمحضها لمدح أبي العيش :

« كانت تلمسان وقتئذ تحت نفوذ «الحسن بن أبي العيش إدريس العلوي» ، وكانت بينه وبين «موسى بن أبي العافية» صاحب أمير المؤمنين «عبد الرحمن الناصر» حروب كان النصر فيها لموسى ، فقال بكر بن حماد في ذلك»[1] .

أما الأستاذ شاوش فإنه يقدمها على هذا النحو : وقال يمدح أبا العيش عيسى بن إدريس صاحب (جراوة) وتلمسان (وهي طويلة حسب ما ذكره البكري) (الكامل) :

---

(1) (تاريخ الأدب الجزائري) لمحمد الطمار ، ص : 37 نشر ش ، و ، ن ، ت ، مركب الطباعة ـ رغاية 1981 .

سـائـــل (زواغـــة) عـن فعـال سيوفـه

ورمـاحـــه في العـارض المتهـلـــل[2]

وديـــار (نفـــزة) كيــف داس حريمهـا

والخيـــل تمـرغ بـالـوشيـج الذبـل[3]

وغشـى (مغيلـة) بالسيـوف مـذلــة

وسقـى (جـراوة) من نقيـع الحنظل[4]

(2) في كتاب الطمار سائل زواغة عن (طعان سيوفه) عوض فعال .

(3) في رواية الطمار (والخيل تمرغ في الوشيح الذبل) عوض بالوشيج .

(4) من إفادات الأستاذ شاوش في تعاليقه على هذه القطعة أن هذا الأمير من أبناء محمد بن سليمان وهذا هو أخ المولى أدريس المتقدم ذكره .

ـ وأن (جراوة) اسم مدينة قديمة أسسها الممدوح عام (857 م) على الضفة اليسرى من وادي ملوية بينها وبين البحر ستة أميال سميت باسم القبيلة التي كانت تقطن بتلك الناحية ولم تبق الآن لها باقية .

ـ وأن (زواغة) اسم قبائل بربرية كانت تسكن الناحية الغربية من مدينة جراوة و (نفزة) اسم قبائل بربرية مغربية استوطنت ناحية تلمسان و (مغيلة) اسم قبائل بربرية كانت تسكن الجبال في ناحية فاس .يبقى أن كل واحد من الكتابين ذكر اسما لأبي العيش فهو عند الطمار (الحسن) وهو عند شاوش (عيسى) .

رد الملوك إلى محل قرارهم

هذه القطعة مما انفرد به كتاب (الدر الوقاد) بيد أن صاحبه صنفها في باب الاعتذار ، وإني غلّبت جانب المدح فيها فوضعتها في هذا الباب :

قال الأستاذ شاوش : وقال لما مثل بين يدي الإمام أبي حاتم حين دخل تاهرت بعد أن جلى عنها (الكامل) :

ماذا يدبر ربنا في أمره
سبحانه في أرضه وسمائه

رد الملوك إلى محل قرارهم
مستبشرين بفضله وعطائه

فتبارك الله اللطيف بصنعه
ما أغفل الثقلين عن نعمائه

رفع السماء بلا عماد بيّنٍ
والبحر أمسكه على أرجائه

لـولاه فــاض عـلى العبـاد بمـوجـه

وعـلى الجبـال الـراسيـات بمائـه

أخـذ البـلاد بسيفـه فاستسلمت

وبـعـدلــه ، وبـفـضـلـه وسخائـه

باب الاعتذار

الاعتـذار إلى أبي حاتـم الرستمـي

نجد نص هذه القطعة في أربعة مصادر هي :

1 ـ مقالة الدكتور محمود علي مكي في مجلة (العربي) العـدد 53 .

2 ـ كتاب (تاريخ الجزائر العام) ج1 للشيخ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي .

3 ـ كتاب (الدر الوقاد) من شعر بكر بن حماد التاهرتي ص 83 للأستاذ محمد بن رمضان شاوش .

4 ـ كتاب (تاريخ الأدب الجزائري) للأستاذ محمد الطمار (ص 35) .

أما الدكتور محمود علي مكي فيقول : ويظل بكر بن حماد في كنف الأمير الإدريسي زمنا لا نعرف مداه ، ثم نراه بعد ذلك مرة أخرى في مسقط رأسه تاهرت وكان يحكمها

حينئذ الأمير الرستمي أبو حاتم يوسف بن محمد بن الأفلح الذي اضطلع بأمور المغرب الأوسط فيما بين سنتي 281 و294 هـ ، وكانت الأمور قد اضطربت على هذا الملك الرستمي ، ويبدو أن بكر بن حماد اشترك في الثورة التي نشبت ضده ، ولكن الملك استتب له بعد ذلك ، فاعتذر اليه بكر بقصيدة يقول فيها[1] :

وتتفق المصادر الثلاثة الأخرى على صياغة الشيخ عبد الرحمن الجيلالي وهي : ومن شعره لما عاد من العراق معتذرا للإمام أبي حاتم[2] ويذكر الأبيات الخمسة الأولى ، ويقدم صاحب كتاب (الدر الوقاد) القطعة قائلا :

قال معتذرا إلى أبي حاتم الرستمي بعد أن رجع من العراق وكان قد أوقع في الفتنة (الطويل) :

ومـؤنسـة لي بالعـراق تـركتهـا
وغـصـن شبـابي في الغصون نـضـير

فقـالـت كمـا قـال النـواسي قبلهـا
«عـزيـز علينـا أن نـراك تسير»

---

(1) العدد 53 من مجلة (العربي) ، ص : 82 و 83 .

(2) كتاب (تاريخ الجزائر العام) ج 1 ، ص : 211 المطبعة العربية الجزائر 1373 هـ = 1954 م .

فقلت : جفاني يوسف بن محمد
فطال علي الليل وهو قصيرُ
أبا حاتم ، ما كان ، ما كان بُغْضةً
ولكن أتت بعد الأمور أمور
فأكرهني قوم خشيت عقابهم
فداريتهم ، والدائرات تدور
وأكرم عفو يأثر الناس أمره
إذا ما عفا الإنسان وهو قدير[3]

(3) ذكر هذا البيت في مقالة الدكتور محمود علي مكي وفي كتاب (الدر الوقاد) ولم يذكر في المصدرين الآخرين .

بـاب الـزهـديـات والمـواعـظ

السفـر من غـير زاد

انفرد كتاب (الدر الوقاد) بذكر هذه القطعة المليئة بالموعظة والاعتبار فأين نوح ولقمان وشداد وعاد ؟

نهـار مـشرق ، وظـلام ليـــل
ألحَّـا بالبيـاض وبالســواد
هما هـدما دعـائـم عمـر نـوح
ولقمـان ، وشـداد ، وعـاد
فيـا بكـر بـن حمـاد تعجَّـبْ
لقـوم سـافـروا مـن غـير زاد
تبيـت عـلى فـراشـك مطمئنـا
كـأنـك قـد أمنـت مـن المعـاد
فيـا سبحـان مـن أرسـى الرواسي
وأوتـدهـا مـع السبـع الشـداد[1]

---

(1) مصدر هذه القطعة كتاب (رياض النفوس) لأبي بكر عبد الله المالكي الجزء الأول طبعة القاهرة 1958 ، وقد تقدم كلام في عجز البيت الأخير مع فقيه القيروان الشيخ أحمد بن أبي سليمان داود الصواف ، انظر (الدر الوقاد) ، ص : 49 و 119 من هذا الكتاب .

تفضيل بعض الناس على بعض

أثبت هذه القطعة كل من صاحب كتاب (الدر الوقاد) ، وصاحب كتاب (تاريخ الأدب الجزائري) يذكر (فما) في أول البيت الثالث ، ولعله خطأ مطبعي عوض (فمن) التي تناسب المقام ، فالحديث للعاقل وليس لغيره ، وصاحب كتاب (تاريخ الجزائر في القديم والحديث) في الجزء الثاني صفحة 71 إذ قال :

«ومما روى له التنسي في (الدر والعقيان) قوله (الطويل) :

تبارك من ساس الأمور بعلمه
وذلَّ له أهل السموات والأرض
ومن قسم الأرزاق بين عباده
وفضَّل بعض الناس فيها على بعض
فمن ظن أن الحرص فيها يزيده
فقولوا له يزداد في الطول والعرض

ذكـــر المـــوت

ورد نص هذه القصيدة في كتابي (تاريخ الأدب الجزائري) لمحمد الطمار (والدر الوقاد ، من شعر بكر بن حماد التاهرتي لمحمد بن رمضان شاوش ، وبحرها (الطويل) :

لقد جمحت نفسي فصدت وأعرضت
وقد مرقت نفسي فطال مروقها[1]

فيا أسفي من جنح ليل يقودها
وضوء نهار لا يزال يسوقها

إلى مشهد لابد لي من شهوده
ومن جُرع للموت سوف أذوقها[2]

---

(1) في كتاب الطمار (لقد جمعت) .

(2) في كتاب الطمار (ومن جزع) خطأ مؤكد .

ستأكلها الديدان في باطن الثرى

ويذهب عنها طيبها وخلوقها

مواطن للقصاص فيها مظالم

تُؤدَّى إلى أهل الحقوق حقوقها[3]

سحاب المنايا كل يوم مظلة

فقد هطلت حولي ولاح بريقها[4]

وللنفس حاجات تروح وتغتدي

ولكن أحاديث الزمان يعوقها[5]

تَجهَّمْتُ خمسا بعد سبعين حجة

ودام غروب الشمس لي وشروقها[6]

وأيدي المنايا كل يوم وليلة

إذا فُتِقت لا يستطاع رتوقها

يُصبِّح أقواما على حين غفلة

ويأتيك في حين البيات طروقها[7]

---

(3) سقط هذا البيت من كتاب الطمار .

(4) في كتاب الطمار (كل يوم يظله) .

(5) في كتاب الطمار (ولكن حدثان الزمان) .

(6) في كتاب الطمار (بعد عشرين حجة . و (طلوعها) عوض شروقها في (الدر) مخالفة للروي .

(7) في كتاب الطمار (يصبح أقوام) .

وقفة بالقبور

نجد نص هذه القصيدة عند كل من الدكتور محمود علي مكي الذي اكتفى منها بتسعة أبيات مع خلاف في ترتيب الأبيات في آخرها ، وعند الأستاذ محمد بن رمضان شاوش الذي ذكر 12 بيتا منها وهي : (البسيط) .

قف بالقبور فناد الهامدين بها   من أعظم بليت فيها وأجساد
قوم تقطعت الأسباب بينهم   من الوصال وصاروا تحت أطواد

راحوا جميعا على الأقدام وابتكروا
فلم يروحوا ولن يغدولهم غاد
والله والله لو ردوا ولو نطقوا
إذاً لقالوا : التقى من أفضل الزاد

فيبرُز القوم وامتدت عساكرهم

كما يوافوا لميقات وميعاد[1]

ما بالقلوب حياة بعد غفلتها

والله سبحانه منها بمرصاد[2]

أين البقاء .. وهذا الموت يطلبنا

هيهات هيهات يا بكر بن حماد[3]

بينا نرى المرء في لهو وفي لعب

حتى نراه على نعش وأعواد[4]

هذا يباكر دنياه منغصة

فيها حزازات أحشاء وأكباد[5]

وكلنا واقف منها على سفر

وكلنا ظاعِنٌ يحدو به الحادي[6]

---

(1) هذا البيت والسابق له لم يذكرهما الدكتور مكي . وصيغة (فيبرز القوم) بالمضارع وردت في كتاب (معالم الإيمان) .

(2) عند الدكتور محمود علي مكي (عند غفلتها) عوض بعد .

(3) عند الدكتور محمود علي مكي (كيف البقاء) وهي أنسب .

(4) استعمل الدكتور محمود رواية المحاطب (ترى ... حتى تراه .

(5) هذا البيت لم يذكره الدكتور محمود علي مكي . وذكر في (معالم الإيمان) بصيغة (هذا أبو بكر دنياه ...) .

(6) هذا البيت يأتي بعده الذي بعده في رواية الدكتور علي مكي .

في كل يوم نرى نعشا نشيعه
فرائح فارق الاحباب أو غاد
الموت يهدم ما نبنيه من بذخ
فما انتظارك يا بكر بن حماد (7)

---

(7) في رواية الدكتور محمود علي مكي (الموت يهدم ما تبنيه من فرح

بـاب المــراثي

رثـاء ابنـه عبـد الـرحمــن

ذكر هذه المرثية كل من الأستاذ محمد الطمار والأستاذ محمد بن رمضان شاوش ، والدكتور محمود علي مكي الذي مهد لها بقوله :

«وقد انصرف بكر بن حماد بآخرة من عمره عن عرض الدنيا ، واقتصر على النظم في الزهد والمواعظ وذكر الموت . وكان وقع مصرع ابنه عبد الرحمن شديدا على نفسه فأكثر من رثائه بقصائد مؤثرة نذكر منها قوله» :

أما الأستاذ شاوش فإنه يقدمها قائلا : قال يرثي ولده «عبد الرحمن بعد قتله» مضيفا في التعليق : تقدم أن الشاعر لما كان عائدا من أفريقية إلى مسقط رأسه تاهرت مصحوبا بولده عبد الرحمن تعرض لهما لصوص في الطريق بقلعة (ابن حمه) فجرحوه وقتلوا ولده عام 295هـ (907م) (الوافر) :

بكيت على الأحبة إذ تولوا

ولو أني هلكت بكوا عليا

فيا نسلي بقاؤك كان ذخرا

وفقدك قد كوى الأكباد كيا

كفى حزنا بأني منك خلو

وأنك ميِّت وبقيت حيا

ولم أك يائسا فيئست لما

رميت الترب فوقك من يديا

فليت الخلق إذ خلقوا

أطاعوا وليتك لم تك يا بكر شيا[1]

تُسَرُّ بأشهر تمضي سراعا

وتطوى في لياليهن طيا[2]

فلا تفرح بدنيا ليس تبقى

ولا تأسف عليها يا بنيا

---

(1) رواية الطمار ، والدكتور بشير خلدون : فليت الخلق إذ خلقوا (بواق) عوض أطاعوا . انظر : التعليق رقم 1 في ، ص : 20 من كتاب (الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي) ش ، و ، ن ، ت ، مركب الطباعة برغاية ـ 1981 .

(2) هذا البيت غير موجود في رواية الأستاذ الطمار وفي رواية الدكتور محمود على مكي (نسر ... ونطوى) بضمير المتكلم المعظم نفسه أو الجماعة .

فقد قطع البقاء غروب شمس

ومطلعها علي يا أخيا[3]

وليس الهم يجلوه نهار

تدور له الفراقد والثريا

(3) لم يذكر هذا البيت والذي بعده الدكتور محمود علي مكي .

مرثية أخرى لابنه عبد الرحمن

هذه المقطوعة لم نجد لها ذكرا إلا في كتاب الأستاذ محمد بن رمضان شاوش (الدر الوقاد) فهو مصدرها بالنسبة الينا ، وقد قدمها هكذا :

وقال يرثي ولده عبد الرحمٰن أيضا (الطويل) :

وهـــوَّن وجـــدي أنـــني بك لاحـــق
وان بقـــائـــي في الحيـــاة قليـــــــل
وان ليـــس يبقـــى للحبيـــب حبيبـــه
وليـــس ببـــاق للخليـــل خليـــــل
ولـــو أن طـــول الحـــزن ممـــا يـــرده
لـــلازمـــني حـــزن عليـــه طويـــل

رثاء تاهرت

قال يرثي مدينته تاهرت وقد خربها العبيديون بعد استيلائهم عليها سنة 296 هـ (909 م) وهي نفس السنة التي مات فيها الشاعر بعد أن فقد ابنه في السنة الماضية ، وشاهد خراب ملاعب صباه ومدارج شبابه ، أنها موعظة بالغة يسوقها للمتكالبين على جمع حطام الدنيا ، إلى الذين لم ينتبهوا من غفلتهم وكأنهم لا يموتون ، ألا ، هل من متزود فقد أزف الرحيل (البسيط) :

زرنــا منــازل قــوم لم يـزوروننا
انـا لـفي غـفلـة عمـا يقـاسونـا

لـو ينطقـون لقـالـوا : الزاد ويحكم
حل الرحيـل ، فما يرجـو المقيمونـا[1]

---

(1) في (معالم الايمان) (جدَّ الرحيل) عوض حل .

المــوت أجـحــف بالـدنيـا فخـر بـهــا
وفِعْلُنـا فـعـل قــوم لا يـمــوتــونــا[2]

فالآن فابكــوا فقـد حـق البكـاء لكــم
فالحاملــون لعــرش الله بـاكــونـــا

مــاذا عسـى تنفـع الـدنيـا مُجمِّعَهـا
لــو كــان جمَّع فيها كنز قـارونــا[3]

(2) « « « (الموت أصبح بالدنيا يخرّبها) .
(3) « « « (لو كان جمع فيها مال قارونا) عوض كنز.

رثاء دعبل وابن الخصيب

علق الأستاذ محمد بن رمضان شاوش قائلا : وقفنا على هذا البيت منفردا فجعلناه في باب الرثاء إذ مضمنه موت دعبل الشاعر وابن الخصيب والي مصر (الكامل) :

المـوت غـادر دِعْبِـلاً ... بــزُوَيْـلَــةٍ[1]

وبأرض بـرقـة أحـمـد ... بن خصيـب[2]

---

(1) من إفادات الأستاذ شاوش في تعاليقه قوله : اسم مدينة في وسط الصحراء تسمى زويلة بني الخطاب وهي أول حد بلاد السودان قيل إن دعبلا هرب اليها حين غضب عليه الخليفة المعتصم العباسي وعزم على قتله لهجائه إياه فتوفي بها وليس المراد بها زويلة المهدية (أفريقية) التي يقول عنها الأدريسي :

«والمهدية مدينتان : إحداهما مدينة المهدية والثانية مدينة زويلة» .

(2) من إفادته أيضا بتصرف أن برقة هي الصحراء الشاسعة الأطراف الواقعة بين طرابلس الغرب ومصر وقاعدتها ابن غازي على ضفة البحر الأبيض المتوسط وهي قسم من أقسام الجماهيرية الشعبية الليبية .

والخصيب هو ابن عبد الحميد العجمي والي مصر وممدوح أبي نواس ومن قوله فيه :

«إذا لم تـزر أرض الخصيب ركائبي ... فـأيّ فتـى بعـد الخصيب نـزور»

هل هي مرثيـة أم هو بيت للعبرة والموعظة ؟ لسنا ندري حتى نطلع على بقية النص ، أو مصدره الذي لم يشر اليه الأستاذ شاوش أيضا بكل أسف .

رثـــاؤه نفســـه

قال الأستاذ محمد بن رمضان شاوش في كتابه (الدر الوقاد) من شعر بكر بن حماد التاهرتي :

وقال يرثي نفسه قبل وفاته وقد دخل عليه بعض أحبابه فلم يستطع القيام (الرجز) :

أحبـــو إلـى المـوت كمـا يحبـــو الجمـــل
قـــد جـــاءني مـــا لـيس لي فيـــه حيــل

---

(1) في (معالم الإيمان) ج 2 ص : 282 قال أبو العرب بن تميم : بلغني أنه لما دخل عليه وهو في الموت ولم يستطع القيام فقال :

أحبـــو إلى المــــوت كمـا الجمـل   قـد جـاءني مـا ليس لي فيه حيـل

خاتمة

أخي القارىء ، ها نحن نصل إلى نقطة البداية الحقيقية للعمل الجاد ، ان الجهد الذي بذلته يرمي إلى غاية واحدة هي أن أجعلك تتجه إلى الذخائر والكنوز لتساهم في جعلها تنطق وتمشي وتشع بين الناس .

ان هذا العمل الذي بين يديك ليس إلا مجرد تساؤلات موضوعية ، وأسئلة علمية طرحتها على نفسي أثناء مطالعاتي خلال ثلاثين سنة على الأقل ، وترددت كثيرا في تقديمها إليك لما وردت علي رسالة وزارة الثقافة والسياحة طالبة مني المساهمة في عملها الجليل : إعداد موسوعة للشباب كهدية من جيل نوفمبر إلى الأجيال الصاعدة ولكن في الأخير اقتنعت بأن هذه الأسئلة يمكن أن تجد أجوبة على يد باحث آخر غيري ، وهم الآن كثر في أجيال الشباب الجزائري

الناهض والحمد لله ، والمجد والخلود للشهداء ، والأمل كبير في شباب الحرية والاستقلال .

وفي الختام لا أدعي أني أعطيت لشاعر المغرب العربي الكبير خلال القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ما يستحق من البحث والدراسة ، ولكني مقتنع أني ألقيت أضواء كاشفة على أغلب جوانبه ، وان الأسئلة التي طرحتها خلال هذا الكتاب ستجد جوابها ان شاء الله خلال كتاب لاحق أو طبعة ثانية ، ومن يدري لعل ذلك يكون على يد كاتب آخر أو باحث كانت تنقصه بعض القضايا لينطلق انطلاقة جادة نحو التحقيق الكامل لإنتاج وحياة هذا العبقري النابغة الذي يستحق منا إعادته الى حياتنا المعاصرة ، بعد أن شبع تنويها وإكبارا من المؤرخين والجغرافيين ، ولكن علماء الأدب وعلماء الحديث ضربوا عنه صفحا .

كما لا يفوتني أن أنوه بمبادرة وزارة الثقافة والسياحة التي فتحت هذا الباب على مصراعيه للباحثين والدارسين والكتاب وأرجو من الله التوفيق والهداية لي ولك أيها القارىء الكريم ، إنه سميع مجيب .

المصادر والمراجع

- **«تاريخ الجزائر في القديم والحديث»** للشيخ مبارك بن محمد الهلالي الميلي ـ ج 2 نشر مكتبة النهضة الجزائرية مطابع بدران وشركاه ـ بيروت 1963 م .
- **«العمدة في محاسن الشعر وآدابه»** لأبي علي الحسن بن رشيق ج 1 مطبعة حجازي ـ القاهرة 1353 هـ ـ 1934 م .
- **«تاريخ الجزائر العام»** للشيخ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، المطبعة العربية الجزائرية 1373 هـ ـ 1954 م .
- **«الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي»** للأستاذ محمد ابن رمضان شاوش المطبعة العلوية ـ مستغانم 1385 هـ ـ 1966 م .
- **مجلة «العربي»** عدد 53 مقالة الدكتور محمود علي مكي عن (التاهرتي) 1962 م .
- **«ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية»** للأستاذ : حسن حسني عبد الوهاب مكتبة ومطبعة المنار ـ تونس 1965 م .
- **«معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى منتصف القرن العشرين»** للأستاذ عادل نويهض ـ بيروت 1971 م .

- «**تاريخ الأدب الجزائري**» للأستاذ محمد الطمار ش . و . ن . ت . الجزائر 1981 م .
- «**النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس**» للدكتور : محمد الصالح الجابري ـ د ، ع ، ك ، ـ و ، ش ، و ، ن ، ت ، مطبعة القلم تونس 1983 م .
- «**الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي**» للدكتور بشير خلدون ، ش ، و ، ن ، ت ، مركب الطباعة ـ رغاية الجزائر 1981 م .
- «**الأغاني**» لأبي الفرج الأصفهاني ـ المجلد العشرون ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج نشر دار الثقافة بيروت 1960 م .
- «**تفسير القرطبي**» (**الجامع لأحكام القرآن**) لأبي عبد الله محمد ابن أحمد الأنصاري القرطبي . نشر (دار الشروق) في سلسلة (كتاب الشعب) بدون تاريخ .
- «**معجم البلدان**» لأبي عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ـ دار صادر للطباعة والنشر ، ودار بيروت للطباعة والنشر بيروت 1404 هـ ـ 1984 م .
- «**معالم الايمان في معرفة أهل القيروان**» لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي الدبّاغ وابن الفضل أبي القاسم بن عيسى ابن ناجي التنوخي . مطابع الدجوي القاهرة 1972 (ج 2) .

كتب للمؤلف

1 ـ «**مأساة الإنسانية في الجزائر**» محاولة لفهم حركة النضال في الجزائر قبل ثورة أول نوفمبر 1954 ـ طبع ونشر مكتبة النجاح ـ تونس 1957 م .

2 ـ «**ألوان من الجزائر**» مجموعة شعرية / طبعة ثانية ش ، و، ن ، ت ، الجزائر 1982 م .

3 ـ «**ألحان من قلبي**» مجموعة شعرية / طبعة ثانية ش ، و، ن ، ت ، الجزائر 1981 م .

4 ـ «**الكهوف المضيئة**» مجموعة شعرية / طبعة ثانية ش ، و، ن ، ت ، الجزائر 1983 م .

5 ـ «**واحة الهوى**» مجموعة شعرية / طبعة ثانية ش ، و، ن ، ت ، الجزائر 1985 م .

6 ـ «**أغنيات أوراسية**» مجموعة شعرية / ش ، و، ن ، ت ، الجزائر 1979 م .

7 ـ «**بكاء بلا دموع**» مجموعة شعرية / ، ش ، و، ن ، ت ، الجزائر 1980 م .

8 ـ «**من عمق الجرح يا فلسطين**» مجموعة شعرية / ش ، و ، ن ، ت ، الجزائر 1983 م .

9 ـ «**أشرف على انجاز كتاب (كيف تحررت الجزائر)**» اصدارات وزارة الإعلام والثقافة احتفالا بالذكرى 25 لثورة نوفمبر ، ش ، و ، ن ، ت ، الجزائر 1979 م .

10 ـ «**أعد الجزء الأول من كتاب (نماذج من الشعر الجزائري المعاصر)**» إصدارات مجلة (آمال) 1982 م .

11 ـ «**كان الجرح ... وكان يا مكان**» محاولة في الرواية / المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر 1983 م .

12 ـ «**أمـدغ**» مجموعة قصصية / المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر 1984 م .

13 ـ «**اقرأ كتابك أيها العربي**» مجموعة شعرية / المؤسسة الوطنية للكتاب ـ 1985 .

13 ـ «**نوفمبر : الصدى والصوت**» محاولة لتتبع اشعاع ثورة نوفمبر في الشعر العربي في الجزائر والأقطار العربية الأخرى / مركب الطباعة برغاية ـ الجزائر 1985 م .

تحت الطبـع :

1 ـ «**روحي لكم**» تراجم ومختارات من الشعر الجزائري الحديث .

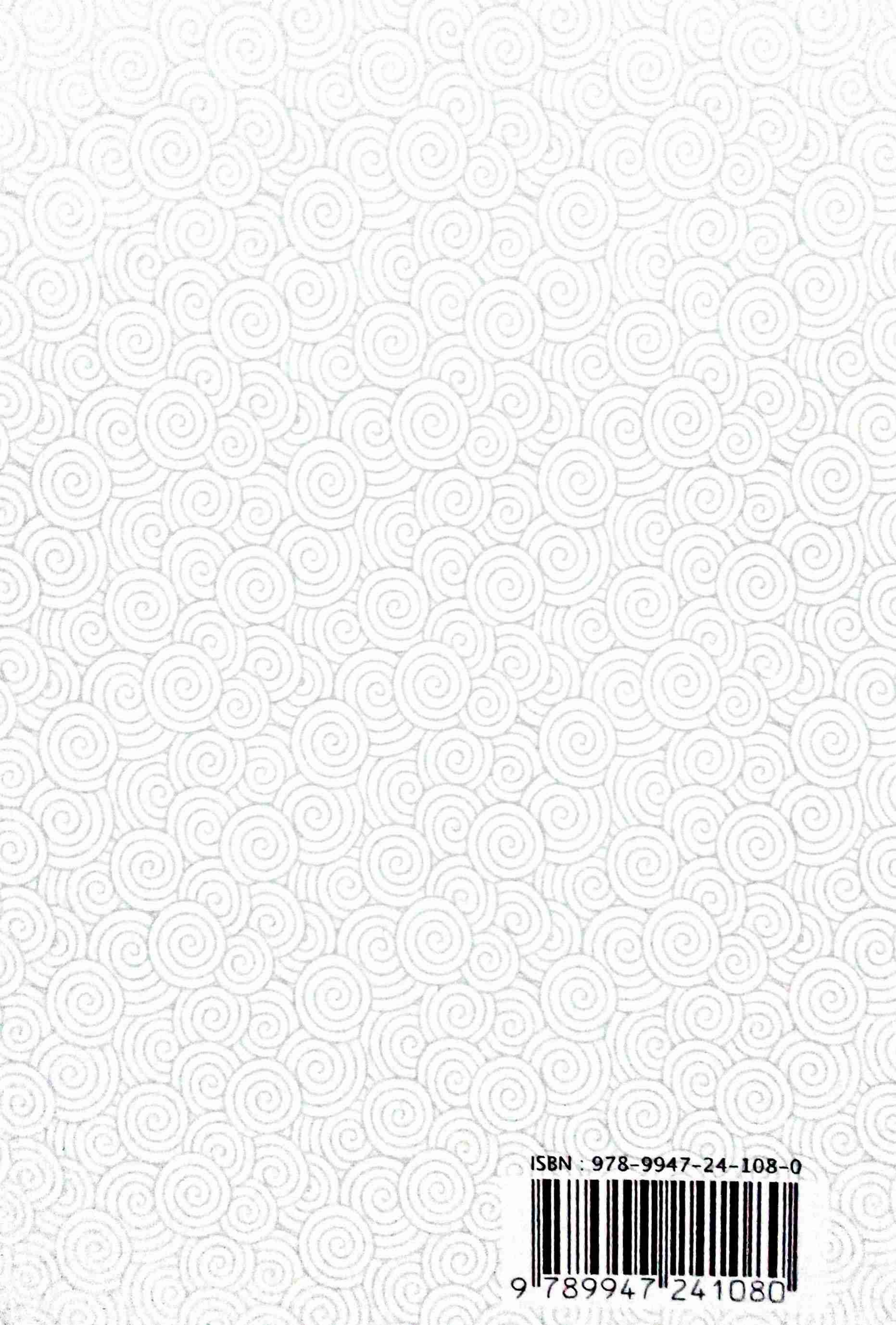
2 ـ «**الشاعر الزنجي واخواتها**» مجموعة تمثيليات للإذاعة والمسرح .

3 ـ «**نحن الأطفال**» مجموعة أناشيد ومقطوعات خاصة بالأطفال والشبـان .

المحتوى

رقم الايداع : 2007-437
ردمك : 978-9947-24-108-0

سحب الطباعة الشعبية للجيش
2007


ISBN : 978-9947-24-108-0

9 789947 241080